الباب الثالث

عصر الأبطال

الفصل الأول

الآخيون

عثر المنقبون فى بوغاز كوى Boghaz Keui على ألواح حثية قليلة يرجع عهدها إلى حوالى عام ١٣٢٣ ق . م تصف الأهجافا Ahhijava بأنهم شعب لا يقل فى قوته عن الحثيين أنفسهم . وورد فى سجل مصرى يرجع إلى حوالى عام ١٢٢١ ق . م أن الأكيواشا Akaiwasha انضموا إلى غيرهم من « شعوب البحر » فى غارة لوبية على مصر ، ويصفهم بأنهم عصابات رحل « يقاتلون ليشبعوا بطونهم ...[1] » .

والآخيون كما يصفهم هومر فى شعره شعب يتكلم اللغة اليونانية يسكن جنوبى تساليا[1] ، وإذ كان هذا الشعب قد أصبح أقوى القبائل اليونانية فإن هومر يطلق اسمه على جميع اليونان الذين حاربوا طروادة . ويصف المؤرخون والشعراء اليونان ، الذين عاشوا فى أيام مجد البلاد الأدبى ، الآخيين ، كما يصفون البلاسجيين ، بأنهم أهل البلاد الأصليون ، وأنهم كانوا يعيشون فيها من أقدم الأزمنة التى تعيها الذاكرة ؛ وافترضوا من غير ما تردد أن الثقافة الآخية التى يصفها هومر كانت هى والتى سميناها فى هذا الكتاب بالثقافة الميسينية ثقافة واحدة . وأخذ شليمان بهذا الرأى ، وظل العلماء يأخذون به فترة قصيرة من الزمان .

ثم حدث فى عام ١٩٠١ أن جاء رجل إنجليزى عنيد هو سير وليم ردجواى Sir William Ridgeway[٢] وزعزع هذه الثقة العزيزة على نفوس العلماء بقوله إن الحضارة الآخية ، وإن اتفقت هى والميسينية فى نواح كثيرة ، تختلف عنها فى تفاصيل هامة : (١) فالحديد لا يكاد يعرف فى الحضارة الميسينية أما الآخيون فهم على علم به . (٢) ويذكر هومر أن موتى الآخيين يحرقون ، أما فى تيرينز وميسينى فهم يدفنون ، وهذا يدل على اختلاف هؤلاء وأولئك فى عقيدتهم عن الحياة الآخرة . (٣) والآلهة الآخية هى الآلهة الأولمبية ، وهذه لا أثر لها قط فى ثقافة ميسينى . (٤) إن الآخيين يستعملون سيوفاً طويلة ، وتروساً مستديرة ودبابيس للصدور مأمونة ، ولم يعثر قط بين الآثار الميسينية على أدوات مشابهة لها فى الشكل . (٥) وبين الشعبين اختلافات كثيرة فى ملابسهم وفى تصفيف شعرهم . واستنتج ردجواى من هذا أن الميسينيين بلاسجيون ، وأنهم كانوا يتكلمون اللغة اليونانية ، وأن الآخيين « كِلْت » شقر أو من شعوب أوربا الوسطى نزحوا إلى تلك البلاد مخترقين إبيروس وتساليا ابتداء من عام ٢٠٠٠ ق . م ، وجاءوا معهم بعبادة زيوس ، ثم غزوا البلوبونيز حوالى عام ١٤٠٠ ، واتخذوا اليونانية لغة لهم ، واتبعوا أساليب الحياة اليونانية ، وأقاموا من أنفسهم زعماء إقطاعيين يحكمون من قصورهم الحصينة البلاسجيين الخاضعين لسلطانهم .

وتلك نظرية تلقى بلا شك كثيراً من الضوء على أصل أولئك القوم حتى لو اضطر العلماء إلى إدخال تعديلات جوهرية عليها . ومما يؤخذ عليها أن الآداب اليونانية لا تذكر قط شيئاً عن غارة آخية على بلاد اليونان ، وأن ليس من الحكمة أن ترفض نظرة أجمع عليها العلماء بسبب زيادة تدريجية فى استعمال الحديد ، أو تبدل فى أساليب الدفن أو تصفيف الشعر ، وفى إطالة

السيوف أو استدارة التروس أو التزين بدبابيس مأمونة . وأرجح من هذا الرأى أن نفترض ، كما كان يفترض كتاب اليونان الأقدمون ، أن الآخيين قبيلة يونانية انتشرت على أثر الزيادة الطبيعية فى عددها من تساليا إلى البلوپونيز فى خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر وامتزجت دماؤهم بدماء البلسجيين — الميسينيين الذين كانوا فى تلك البلاد — وأنهم أصبحوا حوالى عام ١٢٥٠ ق . م الطبقة الحاكمة فيها[٤] . وأغلب الظن أنهم هم الذين أخذ عنهم البلاسجيون اللغة اليونانية ، ولم يأخذوها هم عن البلاسجيين . وقد تكون ألفاظ كورنثة ، وتيرينز ، وپارنسس Parnassus ، وأولمپيا[*] وأمثالها من أسماء الأماكن ، قد تكون هذه أصداء للغة كريتية — پلاسجية — ميسينية[٥] . وبهذه الطريقة عينها ، فيما يبدو لنا ، فرض الآخيون آلهتهم الجلية والسماوية على الآلهة المحلية الأرضية التى كان يعبدها من قبلهم من الأهلين . أما فيما عدا هذا فليس ثمة فارق واضح بين الثقافة الميسينية وذلك الطور الأخير منها ، وهو الآخية ، الذى نجده فى أشعار هومر . ويلوح أن أساليب الحياة عند هؤلاء وأولئك قد امتزجت وانصهرت حتى أمست أساليب واحدة . ثم انمحت الحضارة الإيجية ببطء بعد أن جرى هذا الامتزاج فى مجراه ، وقضى عليها الفضاء الأخير فى هزيمة طروادة ؛ ومن ذلك الوقت بدأت الحضارة اليونانية .

(*) وألفاظ يونانية أخرى مثل sesamon سمسم ، kyparissos (السرو) ، hyssops (الثغام) ، oinos (الخمر) ، sandalon (الصندل) ، chalkos (النحاس) ، thalassa (البحر) ، molybdos (الرصاص) ، zephyros (النسيم) ، kybernao (يوجه السفينة) ، sphongos (الإسفنج) ، laos (النساس) ، labyrinthis (التيه) ، kitharis (الزيثار وهى آلة موسيقية شبيهة بالقيثارة) syrinx (الناى) ، paian (تهليل) .

الفصل الثانى

خرافات الأبطال

توحى إلينا خرافات عصر الأبطال بأصل الآخيين وبما آل إليه أمرهم . وليس من حقنا أن نغفل هذه القصص ، فهى وإن سادها خيال القتيل وإراقة الدماء قد يكون فيها من الحقائق التاريخية أكثر مما نظن ، وهى ممتزجة بالشعر والسرح والفن اليونانى امتزاجاً يجعل فهمها مستحيلا بغير هذه القصص(*) ،

وتذكر النقوش الحثية اسم ملك يدعى أتارسياس Atarissyas تقول إنه ملك الأهيجاڤا فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ؛ وأكبر الظن أنه هو أتريوس ملك الآخيين(٦) . وتقول الأساطير اليونانية إن زيوس أعقب تنتالوس Tantalus ملك فريجيا(**) وإن هذا أعقب پلپس Pelops ، وأعقب پلپس أجممنون ، ولما نفى پلپس من وطنه جاء إلى إليس فى غرب

(*) برسيوس ... هرقليس ... مينوس ، نسيوس ، جيسن ... إن من المألوف فى هذه الأيام أن تعد هؤلاء وغيرهم من أبطال ذلك العصر ... من خلق الأساطير وحدها . أما اليونان المتأخرون فقد كانوا فى نقدهم لتواريخ أيامهم الماضية لا يشكون فى أن هؤلاء أشخاص حقيقيون حكموا بالفعل فى أرجوس وغيرها من الممالك ، وقد أخذ كثيرون من النقاد المحدثين ، بعد أن ظلوا يشكون فى آراء النقاد اليونان زمناً طويلا ، أخذ كثيرون من هؤلاء النقاد يعودون إلى رأى اليونان ويرون أنه هو الرأى الذى يفسر ما لدينا من الشواهد تفسيراً مقبولا ... إن أبطال القصص « أبطال حقيقيون » شأنهم فى هذا شأن المواضع الجغرافية التى كانوا يتحركون فيها » . تاريخ كيمبردج القديم المجلد الثانى ص ٤٧٨ . وسنفترض فى هذا الكتاب أن الخرافات الكبيرة حقيقية فى جوهرها وهمية فى تفاصيلها .

(**) وأغضب تنتالوس الآلهة بأن أفشى أسرارها ، وسرق شرابها وطعامها ، وقدم لها بدلا منهما ابنه بلپس بعد أن قطعه إرباً وغلاه . وأعاد زيوس جمع بلپس كما كان وجازى تنتالوس فى الجحيم بأن سلط عليه ظمأ شديداً ، فوضعه وسط بحيرة ينحسر ماؤها كلما هم بشربه وعلق فوق رأسه أغصاناً مثقلة بالفاكهة ، تبتعد عنه كلما حاول الوصول إليها ، كما علق فوقه وعلق فوق رأسه أغصاناً مثقلة بالفاكهة ، تبتعد عنه كلما حاول الوصول إليها ، كما علق فوقه صخرة تهدده فى كل وقت بأن تسقط عليه وتهشمه(٧) .

البلوپونيز حوالى ١٢٨٣ وصمم على أن يتزوج هبودوميا Hippodomia ابنة أونوماوس Onomaus ملك إليس . ولا تزال القوصرة الشرقية فوق الهيكل العظيم المقام لزيوس فى أولمپيا تقص علينا قصة خطبتهما . وقد كانت عادة الملك أن يختبر من يتقدمون لخطبة ابنته بأن يتبارى وإياهم فى سباق المركبات فإذا سبقه الخطيب تزوج هبودوميا ، أما إذا لم يسبقه فإنه يقتل . وحاول كثير من الخاطبين أن يفوزوا بها ، ولكنهم خسروا السباق وخسروا حياتهم جميعاً ؛ وأراد پلپس أن يقلل ما يتعرض له من الأخطار بأن أرشى مرتيلوس Myrtilus سائق عربة الملك ليزيل المسامير التى تربط عجلات العربة بقطبها ، ووعده بأن يقتسم معه المملكة إذا أفلحت خطتهما . وحدث فى أثناء المباراة أن انكسرت عربة الملك وقتل ، وتزوج پلپس هبوداميا وحكم إيليس ولكنه لم يقتسم مملكته مع مرتيلوس بل ألقاه فى البحر ؛ وصب مرتيلوس وهو يغرق لعنة على پلپس وعلى جميع نسله .

وتزوجت ابنة پلپس سثنلوس Sthenelus بن پرسيوس ملك أرجوس ؛ وورث الملك من بعده ابنهما يوريسثيوس Eurystheus ، ولما مات خلفه عمه أتريوس . وتزوج أجمنون ومنلوس Menelaus ابنا اتريوس كليتمنسترا وهلن ابنتى تنداريوس Tyndareus ملك لاسيديمون Lacedoemon ، ولما مات أتريوس وتنداريوس اقتسم أجمنون ومنلوس فيما بينهما بلاد البلوپونيز الشرقية بأجمعها ، وحكماها من عاصمتيهما ميسينى واسپارطة ، وسميت تلك البلاد پلوپونيز أو جزيرة پلوپس نسبة إلى جدهما ، بعد أن نسى أحفاده لعنة مرتيلوس .

وكانت بقية بلاد اليونان فى ذلك الوقت تجد فى إنجاب الأبطال ، وكانوا يعملون فى الغالب فى تشييد المدن . وتقول الرواية اليونانية إن زيوس غضب على الجنس البشرى لما كان يقترفه من مظالم لسلط عليه طوفاناً جائحاً لم ينجح منه إلا رجل واحد هو ديوكاليون Deucalion وزوجته پيرها Pyrrha فى فلك

أو صندوق استقر على جبل پارنسس . وتناسلت من هيلّن Hellen بن ديوكاليون جميع القبائل اليونانية واشتق من اسمه هلين Hellenes اسم هذه القبائل مجتمعة . وكان هيلّن جد أخيوس Acheus وأيون Ion اللذين تناسلت منهما القبائل الآخية والأيونية واستقرتا بعد تجوال طويل أولاهما فى البلوپونيز والثانية فى أتكا . وأنشأ سكرپس أحد أبناء أيون بمعونة الإلهة أثينا فى موضع كان البلسجيون قد استقروا من قبل على رابية فيه المدينة التى سميت فيما بعد باسمها وهى مدينة أثينة(٨) . وتقول القصة إنه هو الذى نشر الحضارة فى أتكا ، وسن شريعة الزواج ، وحرم التضحية بالأحياء ، وعلم رعاياه عبادة الآلهة الأولمبية ، وخاصة زيوس وأثينا .

وحكم أبناء سكرپس وأحفاده أثينة وكانوا ملوكاً عليها . وكان رابع من حكمها من نسله إركثيوس Erechtheue الذى ألهته المدنية وأقامت له فيما بعد هيكلا من أجمل هياكلها . وجمع حفيده ثسيوس حوالى ١٢٥٠ ق م . قرى أتكا الاثنتى عشرة فى وحدة سياسية سمى سكانها فيما بعد أينما كانوا بالأثينيين . ولعل السبب فى أن اسم أثينة اليونانى ينطق به بصيغة الجمع كما ينطق أيضاً اسم طيبة وميسينى هو أنها نشأت فى بداية أمرها من اجتماع سكان عدة قرى متجاورة . وكان ثسيوس هو الذى وهب أثينة النظام والقوة ، وقضى على عادة التضحية بأبنائها قرباناً لمنيوس ، وأمن أهلها فى ترحالهم بقتل قاطع الطريق بركرستيس Procrustes الذى كان يحب أن يمد سيقان أسراه أو يقطعها حتى تكون فى طول سريره . وعبدت أثينة ثسيوس بعد وفاته واتخذته هو أيضاً إلهاً لها . وجاءت المدينة فى عام ٤٧١ ق . م أى فى عصر التشكك أيام بركليز ، جاءت بعظام ثسيوس من اسكيروس Scyros وأودعتها آثاراً مقدسة فى هيكل ثسيوس .

وقامت فى شمال أثينة فى بوئوتيه Boeotia حاضرة أخرى تنافسها ، وكان لها مثلها تاريخ مثير للمشاعر ، قدر له أن يكون محور المسرحيات اليونانية فى عصر البلاد الأدبى . فقد أنشأ الفينيقيون أو الكريتيون ، أو كادموس Cadmus أحد أمراء المصريين فى أواخر القرن الرابع عشر مدينة طيبة عند ملتقى الطرق التى تعبر بلاد اليونان من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، وعلم منشئوها أهلها الحروف الهجائية ، وقتلوا التنين (ولعل هذا رمز قديم لوباء معد أو فتاك) الذى كان يمنع الأهلين من الانتفاع بماء العين الآرية Areian وخرج من أسنان التنين التى غرسها كدموس فى الأرض رجال مسلحون أخذوا يقتتلون كما يقتتل اليونان فى عصورهم التاريخية حتى لم يبق منهم إلا خمسة ؛ وهؤلاء الخمسة هم الذين أنشئوا المدينة المالكة ، على حد قول طيبة نفسها . وكان مركز حكومة المدينة حصناً يدعى كدمية Cadmeia أقيم على ربوة عثر فيها فى هذه الأيام على قصر كدموس(*) » وحكم بعد كدموس من هذا الحصن نفسه ابنه پوليدوروس Polydorus ثم حفيده لبدكوش Labdacus ثم ابن حفيده لايوس Laius وهو الذى قتله ابنه أوديبوس (أوديب) Oedipus كما يعرف العالم كله وتزوج أمه . ولما مات أوديب تنازع الملك أبناؤه كما يتنازع الأمراء على الدوام ، وطرد إيتوكليز Eteocles أخاه پوليبيسيز ، فذهب هذا إلى أدراستوس Adrastus ملك أرجوس وأقنعه بالعمل على تنصيبه ملكا . وحاول أدراستوس أن يقوم بهذه المهمة (حوالى ١٢١٣ ق . م .) وشن على أثينة حرب (الأحلاف) السبعة ، ثم عاد إلى حربها مرة أخرى بعد ستة عشر عاماً من ذلك الوقت فى حرب الإپجونى Epigoni أو الأبناء السبعة . وفى هذه الحرب قتل إيتوكليز وپوليبيسيز وحرقت طيبة عن آخرها .

(*) يرجع المؤرخون تاريخ هذا العصر إلى ما بين ١٤٠٠ ، ١٢٠٠ ق. م. وقد عثروا فيه على كتابة قليلة بحروف لم تحل رموزها بعد ولعلها متفرعة من أصل كريتى .

وكان بين أشراف طيبة رجل يسمى أمفتريون Amphitryon متزوج من امرأة فاتنة تدعى ألكمين Alcmene . وزارها زيوس وأمفتريون غائب فى حرب من الحروب واستولدها هرقليز (هرقل) Heracles أو هرقول Hercules(*) . ولم تكن هيرا Hera تحب أن ينزل الآلهة فى عبثهم إلى هذا الحد فأرسلت حيتين لإهلاك الوليد فى مهده ؛ ولكن الطفل أمسك كل واحدة منهما بإحدى يديه وخنقهما جميعاً ، ومن أجل ذلك سمى هرقليز لأنه ورث المجد عن هيرا . وحاول لينوس Linus ، أقدم الأسماء فى تاريخ الموسيقى ، أن يعلم الطفل العزف والغناء ، ولكن هرقليز لم يعبأ بالموسيقى ، وقتل لينوس بقيثارته . ولما شب الطفل ، وأصبح جباراً ، شقياً ، سمجاً ، سكيراً ، نهماً ، تعهد أن يقتل أسداً كان يفتك بقطعان أمفتريون وثسپيوس . وقدم ثسپيوس ملك ثسپيا Thespiæ بيته وبناته الخمسين إلى هرقليز . وقام البطل بما تعهد به على أحسن وجه(١٠) ، فقتل الأسد واتخذ جلده لباساً له ، وتزوج مجارة Megara ابنـــة كريون Creon الطيبى وحاول أن يحيا حياة مستقرة هادئة ، ولكن هيرا سلطت عليه نوبة من الجنون ، فقتل أبناءه على غير علم منه . وجاء إلى مهبط الوحى فى دلفى يستنصحه ، فأشير عليه بأن يذهب إلى تيرينز ويعيش فيها ويخدم يورثيوس ملك أرجوس مدى اثنى عشر عاماً يصبح بعدها إلهاً مخلداً . فصدع بالأمر وقام ليورثسيوس بالاثنى عشر عملا(**) الذائعة الصيت . ولما أطلقه الملك عاد إلى طيبة ، حيث قام

(*) ويقول ديودور إن « زيوس ضاعف طول تلك الليلة ثلاثة أضعاف طولها الأصلى ؛ وإنه تنبأ للطفل بقوته غير العادية بسبب طول الوقت الذى قضياه فى إنجابه »(٩)

(**) وخنق الأسد الذى كان يفترس قطعان نيميا Nemea ، وقتل الأفعى هيدرا الكثيرة الرؤوس التى أهلكت لرنا Lerna ، وقبض على ظبى سريع العدو وجاء به إلى يورسثيوس Eurystheus ، واقتنص خنزيراً برياً من جبل يوريمنثوس Eurymanthus وجاء به إلى يورسثيوس ، وطهر فى يوم واحد اسطبلات أو چياس وكان فيها ثلاثة آلاف ثور وذلك بأن حول مجرى مجرى ألفيوس Alpheus وپنيوس Peneus إلى مزارع الثيران ، وانتظر فى إلس حتى أتام الألعاب الأولمپية ، ثم أهلك الطيور الأستمفالية Stymphalian الفتاكة التى كانت فى أركاديا ، وقبض على الثور الهائج الذى كان يعيث فى كريت فساداً ، —

بأعمال كثيرة شاقة ، وانضم إلى ركاب السفينة أرجوس ، ونهب طروادة فيمن نهبوها ، وأعان الآلهة على أن تنتصر على المردة الجبابرة ، وفك قيود بروميثيوس Prometheus ، وأعاد الحياة إلى ألستيس Alcestis ، وقتل أصدقاءه فى أوقات مختلفة بطريق الصدفة . واتخذه الناس بعد موته بطلا وإلهاً وعبدوه . وإذ كان قد أحب فتيات يخطئهن الحصر فقد ادعت كثير من القبائل أنها من نسله(*) .

واستقر أبناؤه فى تراكيس Trackis فى تساليا ، ولكن يوريسثيوس خشى أن يخلعوه عن عرشه انتقاماً منه لما عاناه أبوهم على يديه من نصب لا ضرورة له ، فأمر ملك تراكيس أن يخرجهم من بلاد اليونان . ولجأ أبناء هرقل إلى أثينة ، وسير يوريسثيوس إليهم جيشاً ليقاتلهم ولكنهم هزموا الجيش وقتلوه . ولما جاءهم أثريوس على رأس قوة أخرى ، عرض هيلوس Hyllus أحد أبناء هرقل أن يبارز أحد رجال أتريوس مشترطاً أنه إذا غلب خصمه استولى الهرقليون على مملكة ميسينى ، وإذا هزم خرج الهرقليون فلا يعودون قبل

= وحمله فوق ظهره إلى يوريسثيوس ، وقبض على خيل ديوميديس **Diomedes** آكلة الآدميين وروضها ، وقتل الأمزونيات عن آخرهن ؛ وأنشأ عند مدخل البحر المتوسط نقوشين بارزين متقابلين هما « عمود هرقول » . وقبض على ثورى جريون **Geryon** و اخترق بلاد غالة وجبال الألب ، وإيطاليا ثم عبر بهما البحر إلى يوريسثيوس ، ووجد تفاحتى هسپريدس ، ثم أمسك بالأرض زمنا ما بدل أطلس ؛ ثم نزل إلى هيديس (الجحيم) ، وأنجى من العذاب فيها ثسيوس وأسكلفوس **Ascalophus** . وكانت هيرا قد عهدت إلى بنات أطلس بالتفاحات الذهبية التى أهدتها إياها جائيا **Gaea** (الأرض) حين تزوجت زيوس . وكان تنين جبار يحرس التفاحتين ، اللتين تهبان من يأكلهما صفات شبيهة بصفات الآلهة .

(*) يظن ديودور أن هذا « البطل الشقاق » العجيب كان مهندساً بدائياً فى عصر ما قبل التاريخ شبيهاً بأمپدقليز . ويفهم من الخرافات التى تروى عنه أنه طهر اهيرن لمائية ، وشق الطرق فى الجبال ، وحول مجارى الأنهار وأصلح الأراضى البور ، وطهر الغابات من الوحوش المفترسة ، وجعل أرض اليونان صالحة للسكنى(١١) وقد تفسر قصة هرقل على أنه كان ابن الله المحبوب الذى يرضى بالعذاب حباً فى الخلق ، ويحيى الموتى وينزل إلى الجحيم ثم يصعد إلى السماء .

مضى خمسين عاماً يمتلك أبناؤهم بعدها ميسينى[١٢] . فلما هزم خرج هو وأتباعه من البلاد ، وبعد خمسين عاماً عاد إليها جيل جديد من الهرقليين . وكانوا هم ، لا الدوريون ، الذين رفضت مطالبهم ، ففتحوا البلوبونيز ، كما تقول الرواية اليونانية ، وانتهى بهذا الفتح عصر الأبطال .

وإذا كانت قصة بلبس وأبنائه توحى بأن آسية الصغرى هى أصل الآخيين فإنا نستطيع أن نتتبع ما آل إليه أمرهم فى قصة ركاب السفينة أرجوس ، وهذه القصة ككثير غيرها من الخرافات التى تجمع بين الرواية التاريخية والقصص الشعبية عند اليونان تعد من أحسن القصص القديمة لأن فيها جميع عناصر المغامرة ، والارتياد ، والحرب ، والحب ، والغموض ، والموت ، اندمجت كلها بعضها ببعض وتكون منها نسـيج غنى خصب صاغ منه أپولونيوس الرودسى فى أيام الحضارة المتأغرقة ملحمة جديدة متوسطة القيمة بعد أن كاد الكتاب المسرحيون الأثينيون يبلونه بما صاغوه منه من مسرحيات . وتبدأ هـذه الملحمة بقصة أوركمنوس البيوتى Boeotian وبالتضحية الآدمية كما تبدأ مأساة أجممنون . ذلك أن الملك أثاماس Athamas لما وجد أن بلاده قد حل بها القحط ، عرض أن يقرب ابنه فركسوس Phrixus قرباناً للآلهة . وبلغ الخبر مسامع فوكسوس ففر من أركمنوس بصحبة أخته هلى Hel'e بأن طار معها فى الجو على ظهر كبش ذى جزة من الذهب . ولكن الكبش لم يكن ثابتاً فى طيرانه فسقطت هلى من فوق ظهره وغرقت فى المضيق الذى سمى فيما بعد الهلسپنت . أما فركسوس فوصل سالماً إلى البر واتخذ طريقه إلى كلكيز Colchis عند الطرف الشرقى من البحر الأسود ، وهناك ضحى بالكبش وعلق جزته قرباناً لآريس Ares إله الحرب . وأقام أيتيس Aietes ملك كلكيز تنيناً لا تغمض له عين ليحرس الجزة ، لأن نبوءة قد أوحت إليه أنه سيموت إذا استولى عليها رجل من غير أهل البلاد ؛ وأراد أن يزيد اطمئناناً على نفسه فأمر أن يقتل

كل من يأتى إلى كلكيز من الغرباء . وكانت ابنته ميديا Medea تحب الغرباء والأساليب الغريبة ؛ وتشفق على أبناء السبيل وتساعدهم على الخروج من بلاد أبيها سالمين ، فأمر أبوها بأن تمنع من الاتصال بالناس ، ولكنها فرت إلى مكان مقدس بجوار البحر وعاشت هناك مكتئبة حزينة دائمة التفكير فى أمرها حتى عثر عليها چيسن Jason فى أثناء تجواله على شاطئ البحر .

وقبل عشرين عاماً من ذلك الوقت (والمؤرخون اليونان يقولون إن ذلك كان حوالى ١٢٤٥) اغتصب پلياس Pelias بن پوسيدن Poseidon عرش إيسن Aeson ملك يولكوس Jolcus من أعمال تساليا . وأخفى أصدقاء الملك المخلوع ابنه الطفل چيسن ، وشب هذا الطفل فى الغابات حتى أصبح شابا قوياً شجاعاً . وظهر يوما من الأيام فى السوق يرتدى جلد فهد ويحمل من السلاح رمحين ، وطالب بملك أبيه . ولكنه كان يبلغ من السذاجة مبلغه من القوة . وأقنعه پلياس أن يقوم بعمل شاق يكون ثمنا لعرشه — وكان هذا العمل الشاق هو استعادة الجزة الذهبية . فصنع چيسن السفينة العظيمة أرجو (أى السريعة) ودعا إلى صحبته فى مغامرته أشجع شجعان اليونان ، فلبى الدعوة هرقل ومعه هيلاس Hylas رفيقه المحبوب ؛ وجاء معهما پليوس Peleus والد أخيل ، وثسيوس ، وملیجر Meleager ، وأرفيوس Orpheus والعذراء أتلنتا السريعة العدو . ولما دخلت السفينة الهلسپنت اضطرت إلى الوقوف ، ولعلها قد وقفت فى وجهها قوة من طروادة لأن هرقل ترك الحملة لينهب المدينة ويقتل ملكها لؤمدون Laamedon وأبناءه كلهم عدا پريام .

ولما وصل ركاب السفينة أرجو إلى مقصدهم بعد أن لاقوا ألوانا من العذاب حذرتهم ميديا من الموت الذى ينتظر كل من جاء كلكيز من الغرباء ، ولكن چيسن أصر على عزمه ورضيت ميديا أن تساعده فى الحصول على الجزة إذا وعدها بأن يأخذها معه إلى تساليا ويحتفظ بها زوجة له حتى مماته .

وعاهدها على ذلك واستولى بمعونتها على الجزة ، وفر بها إلى سفينته ومعه ميديا ورجاله . وجرح الكثيرون منهم ولكن ميديا عالجتهم بالأعشاب والجذور . ولما وصل چيسن إلى پولكوس طالب بمملكته مرة أخرى ، وتلكأ پلياس فى إجابة طلبه ، فما كان من ميديا إلا أن استعانت بفنون السحر فخدعت بنات پلياس وحملتهن على أن يغلين أباهن حتى يموت . وارتاع الناس من قواها السحرية فأخرجوها هى وچيسن من پولكوس وحرموه من العرش إلى أبد الدهر(١٣) . ونترك بقية القصة إلى يوريديز .

إن الأسطورة فى الكثير الغالب قطعة من الحكم الشعبية يخلق منها الشعر أشخاصاً . وكثيراً ما تكون الأسطورة قطعة من التاريخ تضخمت بفضل ما اتصل بها من قصص جديدة على مَرِّ السنين . وأكبر الظن أن اليونان قد حاولوا فى الجيل السابق على حصار طروادة التاريخى أن يشقوا طريقهم فى الهلسپنت ويفتحوا بلاد البحر الأسود للاستعمار والتجارة ؛ وقد تكون قصة رجال السفينة أرجو ذكريات قديمة لهذا الارتياد التجارى صيغت فى قالب المسرحيات ؛ وقد تكون قصة « الجزة الذهبية » إشارة إلى الجلود الصوفية أو الأقمشة التى كانت تستخدم قديماً فى شمالى آسية الصغرى للحصول على ما تحمله المجارى المائية من قطع ذهبية صغيرة(١٤) .

ولقد استقر اليونان فعلا حوالى ذلك الوقت فى جزيرة لمنوس Lemnos التى لا تبعد كثيراً عن الهلسپنت . لكن البحر الأسود لم يكن من البحار الصالحة للتجارة والاستعمار رغم اسمه المغرى ، وقامت طروادة الحصينة مرة أخرى بعد أن انتهبها هرقل تعترض سبيل من يخاطرون باجتياز المضيق ؛ ولكن اليونان لم ينسوا ما فعلوه من قبل وعادوا من جديد يحاولون اجتيازه بمائة سفينة بدل سفينة واحدة ، وأهلك الآخيون أنفسهم فى سهل إليون ليحرروا الهلسپنت .

الفصل الثالث

الحضارة الهومرية

ترى كيف نستطيع أن نعيد تصوير حياة بلاد اليونان الآخية (١٣٠٠ — ١١٠٠ ق . م) بالاستناد إلى أقاصيصها ؟ أن أكثر ما نعتمد عليه من المصادر فى رسم هذه الصورة هو أشعار هومر ، وهو إنسان قد لا يكون له وجود ، وقد قيلت ملاحمه بعد عصر الآخيين بثلاثة قرون على أقل تقدير . نعم إن علم الآثار قد أدهش الأثريين بأن أثبت أن طروادة ، وميسينى ، وتيرينز ، وكنوسس وغيرها من المدائن التى وصفتها الإلياذة كلها مدن حقيقية ، كما أدهشهم بالكشف عن حضارة ميسينية تشبه شبهاً عجيباً تلك الحضارة التى تتشكل من تلقاء نفسها بين أشعار هومر ؛ ومن أجل هذا ينزع العلماء فى هذه الأيام إلى أن يعدوا بعض الأشخاص المهمين الذين ورد ذكرهم فى هذه القصص الخلابة أشخاصاً حقيقيين . لكننا مع هذا لا نستطيع أن نقول إلى أى حد تعكس قصائد هومر حال العصر الذى كان يعيش فيه الشاعر لا العصر الذى يكتب عنه . إذن فكل الذى فى وسعنا أن نسأل عنه هو : ما هى الصورة التى كانت تتخيلها الرواية اليونانية كما جمعها هومر فى أشعاره عن العصر الهومرى ؟ ومهما تكن هذه الصورة فإنا سنحصل منها على صورة من بلاد اليونان فى طور الانتقال الظريف من الثقافة الإيچية إلى حضارة اليونان فى العصور التاريخية .

١ — العمال

إن الصورة التى تنطبع فى أذهاننا عن الآخيين (أى عن اليونان فى عصر الأبطال) هى أنهم كانوا أقل حضارة من الميسينيين الذين سبقوهم ،

وأرقى حضارة من الدوريين الذين خلفوهم ، وأهم ما نلاحظ فيهم أنهم كانوا أحسن أجساماً من هؤلاء وأولئك ، فرجالهم طوال القامة أقوياء البنية ، ونساؤهم ذوات جمال بارع فتان يسلب العقول بكل ما فى هذا التعبير من معان . والآخيون ينظرون ، كما ينظر الرومان الذين عاشوا من بعدهم بألف عام ، إلى الثقافة الأدبية على أنها تدهور وتخنث . وهم لا يستخدمون الكتابة إلا مضطرين ، ولا يعرفون من الأدب إلا الأغانى الحربية وأناشيد الشعراء الجوالين غير المكتوبة . وإذا جاز لنا أن نصدق هومر حق علينا أن نقول إن زيوس قد حقق فى المجتمع الآخى آمال الشاعر الأمريكى الذى كتب يقول إنه لو كان إلهاً لجعل الرجال كلهم أقوياء ، والنساء كلهن حساناً ، ثم جعل نفسه بعد ذلك رجلا . لقد كانت بلاد اليونان الهومرية جنة من الحور العين[١٥] . وحتى رجالها كانوا على جانب كبير من الجمال ، كان لهم شعر مرسل طويل ، ولحى كبيرة ؛ وكانت أعظم هدية يستطيع الرجل أن يهديها أن يقص شعر رأسه ويقربه قرباناً أمام كومة الحطب التى تحرق عليها جثة صديقه[١٦] ؛ ولم يكن العرى قد أصبح بعد عادة فى البلاد فكان النساء والرجال يغطون أجسامهم برداء مربع يطوونه فوق الكتفين ، ويشبكونه بدبوس ، ويصل إلى قرب الركبتين . وتضيف النساء إلى هذا نقاباً أو حزاماً ويضيف الرجال غطاء للحقوين — قدر له أن يتطور على مر الزمن وازدياد الاحتشام والكرامة حتى أصبح هو اللباس ثم السروال (البنطلون) . وكان الأغنياء يرتدون أثواباً غالية الثمن كالثوب الذى تقدم به پريام فى ذلة إلى أخيل ليفتدى به ولده[١٧] . وكان الرجال حفاة الأقدام والنساء عاريات الأذرع ، إلا فى خارج الدور فكانوا يحتذون جميعاً صنادل ، أما فى داخلها فكانوا فى العادة حفاة . وكانوا رجالا ونساء يتحلون بالجواهر ، وقد ادهنت النساء وادهن پاريس « بالزيت الذى له رائحة الورد[١٨] » .

ترى كيف كان يعيش أولئك الرجال والنساء ؟ يصفهم هومر بأنهم

كانوا يحرثون الأرض ، ويشمّون وهم فرحون الأرض السوداء بعد تقليبها ، ويتتبعون بأعينهم فى فخر وخيلاء الخطوط المستقيمة التى خطتها المحاريث : ويبذرون القمح ويروون الأرض ، ويقيمون الجسور ليتقوا بها فيضان الأنهار فى الشتاء[١٩] . ويشعرنا هومر بيأس الفلاح الذى قضى الشهور الطوال فى كدح مستمر ثم يأتى « التيار الجارف السريع فيهدم الحواجز والجسور ، ولا تستطيع سلسلة الأكوام الطويلة أن تكبح جماحه ، أو أسوار البساتين المثمرة حين يفاجئها أن تقف فى سبيله[٢٠] وليست أرض البلاد مما يسهل فلحها لأن الكثير منها جبال أو مناقع ، أو تلال كثيفة الأشجار ؛ وكانت الحيوانات البرية تهاجم القرى ، فكان الصيد ضرورة قبل أن يصبح رياضة وهواية . وكان الأغنياء يعنون بتربية قطعان كبيرة من الماشية ، ولضأن ، والخنازير ، والمعز ، والخيل ، ويروى أن رجلا منهم يسمى إركثونيوس Erichthonius كان له ثلاثة آلاف فرس ولود مع أمهارها[٢١] . وكان الفقراء يأكلون لحم السمك ، والبقول ، والخضر أحياناً ، أما المحاربون والأغنياء فكان جل اعتمادهم على اللحم المشوى الكثير ، وكان فطورهم اللحم والنبيذ . وقد تغذى أديسيوس مع راعى خنازيره بخنزير صغير مشوى ، وتعشيا بثلث خنزير عمره خمس سنوات » . وكانوا يستعملون عسل النحل بدل السكر ، ودهن الحيوان بدل الزبد ، والكعك المصنوع من الحب بدل الخبز ، فكانوا يجعلونه رقائق ثم يخبزونه على لوح من الحديد أو على حجر محمى ، ولم يكن الآكلون يضطجعون فى أثناء تناول الطعام كما كان الأثينيون يفعلون فيما بعد ، بل كانوا يجلسون على كراسى ممتدة على طول الجدار لا مصفوفة حول مائدة وسطى. ولم يكونوا يستعملون الشوك أو الملاعق أو الفوط إلا ما عسى أن يكون مع الضيوف من مدى ؛ وكانوا يأكلون بأيديهم وأصابعهم[٢٢] ، وكان شرابهم الرئيسى حتى الفقراء والأطفال هو النبيذ المخفف .

وكانت الأرض ملكاً للأسرة أو العشيرة لا للفرد : وكان الأب هو الذى

(شكل ٥) كأس من ڤافيو
(متحف أثينة)

(شكل ٦) قناع « أجمنون »
(متحف أثينة)

يشرف عليها ويصرف شئونها ، ولكنه لم يكن من حقه أن يبيعها[٢٤] ، وتقول الإلياذة إن مساحات واسعة كانت من أملاك الملك المشاعة (الدومين) ؛ وكانت فى واقع الأمر ملكاً للمجتمع يستطيع أى إنسان أن يرعى فيها ماشيته ؛ ونرى فى الأودية أن هذه الأرض المشاعة قد قسمت وبيعت — أو أصبحت ملكا للأفراد الأثرياء أو الأقوياء ؛ وهكذا اختفت الأرض المشاعة فى بلاد اليونان القديمة بنفس الطريقة التى اختفت بها فى إنجلترا الحديثة[٢٥] .

وكان فى مقدور الأرض أن تخرج المعادن كما تخرج الطعام ؛ ولكن الآخيين أهملوا استخراج المعادن واكتفوا باستيراد النحاس ، والقصدير ، والفضة والذهب ، ومادة أخرى جديدة عجيبة من أسباب الترف ، وهى الحديد . فنرى كتلة غير مشكلة من الحديد تقدم هدية ثمينة فى الألعاب التى أقيمت تكريماً لپتروكلوس Patroclus[٢٦] ، ويقول عنها أخيل إنه سوف يُصنع منها كثير من الأدوات الزراعية . وهو لا يذكر فى هذا المقام شيئاً عن الأسلحة ، وكانت لا تزال تصنع من البرنز[٢٧] ، وتصف الأوديسة سقى الحديد(*) ، ولكن هذه الملحمة قد وصلت إلينا فى أكبر الظن من عصر متأخر من عصر الإلياذة .

وكان الحداد أمام كوره والفخارى أمام عجلته يعملان فى حانوتيهما ، وكان غيرهم من الصناع الذين ورد ذكرهم فى أشعار هومر — كصناع السروج ، والبنائين ، والنجارين ، وصناع الأثاث — كان هؤلاء يعملون فى منازل من يكلفونهم بعمل لهم ؛ ولم يكونوا يعملون للأسواق ؛ أو للبيع أو للكسب ؛ وكانوا يداومون العمل ساعات طوالا ، لكنهم كانوا يعملون على مهل وليس وراءهم دافع من المنافسة الظاهرة[٢٩] . وكانت الأسرة نفسها تقوم بصنع أكثر حاجياتها ، فكان كل فرد يعمل بيديه ، وكان

(*) « وحين يسقى الحداد بلطة عظيمة أو مقشراً فى الماء البارد ، كان يخرج منها أزيزه ، حسبما هو الذى يكسب الحديد صلابته[٢٨] »

رب الأسرة ، بل كان الملك المحلى نفسه مثل أديسيوس ، يصنع ما يحتاجه بيته من سرر وكراسى ، وما يلزمه هو من أحذية وسروج ، وكان — على عكس اليونان المتأخرين — يفخر بمهارته فى الأشغال اليدوية . ولقد كانت پنپى ، وهلين ، وأندروماك وخادماتهن لا ينقطعن عن الاشتغال بالغزل والنسج والتطريز ، والأعمال المنزلية . وتبدو هلين وهى تعرض تطريزها على تلماك[٣٠] ، أجمل منها وهى تتبختر فوق أسوار طروادة .

وكان الصناع من الأحرار ، ولم يكونوا قط من الرقيق كما كانوا عند اليونان الأقدمين ؛ وكان من المستطاع عند الحاجة تجنيد الفلاحين للعمل فى خدمة الملك ، ولكننا لا نسمع قط بالأقنان اللاصقين بالأرض المرتبطين بها ؛ ولم يكن الأرقاء كثيرين ، ولم تكن منزلتهم منحطة ، وكان معظم الرقيق من الجوارى خادمات المنازل ، وكانت منزلتهن فى الواقع لا تقل عن منزلة خادمات المنازل فى هذه الأيام إذا استثنينا أنهن كن يُشترين أو يبعن لآجال طوال لا للقيام بأعمال قصيرة غير ثابتة كحالهن فى هذه الأيام . وكن فى بعض الأحيان يعاملن بقسوة ووحشية ؛ لكنهن فى العادة كن كأعضاء فى الأسرة التى يعملن لها ، يعنى بهن فى مرضهن أو عجزهن أو شيخوختهن ؛ وكن يرتبطن فى بعض الأحيان بعلاقات الود والمحبة مع رب الأسرة أو ربتها . فقد كانت نوسكا Nausica تساعد جواريها فى غسل الملابس فى النهر ، وتلعب الكرة معهن ، وتعاملهن فى جميع الأحوال معاملة الرفيقات[٣١] . وإذا ولدت الجارية ولداً من سيدها كان هذا الولد فى العادة من الأحرار[٣٢] ، غير أنه كان ككل إنسان معرضاً لأن يكون رقيقاً إذا وقع أسيراً فى الحرب أو فى غارة القراصنة . وكان هذا أسوأ ما فى الحياة الآخية .

والمجتمع الهومرى مجتمع ريفى ، وحتى « مدنه » لا تعدو أن تكون قرى تشرف عليها قلاع قائمة فوق التلال المجاورة لها . وكانت الرسائل تنقل على أيدى السعاة أو الرسل ، وإذا كانت المسافة طويلة نقلت الرسالة بإشارات

النار تبعث من إحدى قلل الجبال إلى قلة أخرى[٣٣] : وكان النقل البرى تعوقه الجبال الخالية من الطرق ، كما تعوقه المستنقعات ، والمجارى الخالية من القناطر . وكان النجارون يصنعون عربات ذات أربع عجلات لها تروس وأطر من الخشب ، ولكن معظم البضائع كانت رغم وجود هذه العربات تنقل على ظهور البغال أو الرجال ؛ وكانت التجارة البحرية أقل مشقة من التجارة البرية رغم القراصنة والعواصف ؛ فقد كانت الموانئ الطبيعية كثيرة ، ولم تكن السفن تنقطع عن رؤية الأرض إلا فى أثناء الرحلة الخطرة التى تدوم أربعة أيام من كريت إلى مصر . وكانت السفن عادة ترسو إلى البر فى الليل وينام البحارة والمسافرون فى مكان أمين على الأرض . وكان الفينيقيون فى العصر الذى نتحدث عنه لا يزالون أفضل من اليونان فى التجارة والملاحة ، وكان اليونان يثأرون لأنفسهم من هذا النقص باحتقار التجارة وإيثار القرصنة .

ولم يكن عند اليونان الهومريين نقود ، فكانوا يستخدمون بدل النقود المضروبة سبائك من الحديد ، والبرنز ، والذهب ؛ وكان الثور والبقرة يتخذان واسطة للتبادل . وكانت السبيكة الذهبية التى تزن سبعة وخمسين رطلا تسمى تالنت (من تالنتون أى وزنة[٣٤]) . وكانت المقايضة كثيرة رغم ما كان عندهم من وسائط متعددة للتبادل ، وكانت ثروة الشخص تقدر بما عنده من بضائع وخاصة بما عنده من ماشية لا بما يملك من قطع من المعدن أو الورق قد تفقد قيمتها أو يعتريها التغير والتبديل فى أى وقت من الأوقات إذا ما بدل الناس عقائدهم الاقتصادية . وفى أشعار هومر كما فى الحياة الواقعية أغنياء وفقراء ؛ ذلك بأن المجتمع أشبه ما يكون بعربة تجعجع(*) فى طريق لا مستو ولا معبد ، ومهما أتقن صنع العربة وتركيبها فإن بعض ما تحمله من متاع سوف يرسب فى قاعها ويطفو بعضه الآخر

(*) الجعجعة صوت الرحى وهو أقرب الأصوات إلى صوت العربات على الطريق الغير المعبد . (المترجم)

إلى أعلى سطحها . ولم يصنع الفخرانى آنيته كلها من طينة واحدة كما لم يصنعها كلها بنفس القوة والهشاشة ؛ ومن أجل هذا لا يكاد يسهل عصر الكتاب الثانى من كتب الإلياذة حتى نستمع إلى حرب الطبقات ، وحين يستشيط ثرسيتس Ther. sites غضباً ويطلق لسانه فى أحمنون ندرك من فورنا أن هذا عرض قديم من أعراض ذلك الداء المزمن الوبيل[٣٥] .

إنا ليخيل إلينا ونحن نقرأ أشعار هومر أننا نعيش فى مجتمع أكثر بدائية وأقل خضوعاً للقوانين من المجتمع الذى شهدناه فى كنوسس أو ميسينى . فلقد رجعت الثقافة الآخية خطوة إلى الوراء ، وكانت مرحلة انتقال بين الحضارة الإيجية الزاهرة والعصر المظلم الذى سوف يعقب الفتح الدورى . فالحياة الهومرية فقيرة فى الفنون ، غنية فى النشاط والعمل ؛ وهى ثقافة ينقصها التفكير والتأمل ، خفية سطحية ، سريعة . وهى أصغر سناً وأصلب عوداً من أن تهتم بالأخلاق أو الفلسفة . أو لعلنا نخطئ فى حكمنا عليها لأننا نراها فى الأزمنة الحادة أو الفوضى التى أعقبت الحرب .

ولسنا ننكر أننا نشهد فى هذه الثقافة كثيراً من الصفات والمناظر الرقيقة الرحيمة ، وإنك لترى المحاربين أنفسهم كراماً ، يعطف بعضهم على بعض ، كما ترى بين الأب والابن حبا به من العمق قدر ما به من السكون والصمت . فها هو ذا أديسوس يقبل رؤوس أفراد أسرته وأكتافهم حينما يعرفونه بعد غيابه الطويل ، وها هم أولاء يقبلونه كما يقبلهم[٣٦] . وحين يعلم منلوس وتعلم هلن أن تلمكس الطفل النبيل ابن أديسيوس المفقود الذى حارب من أجلهم حرب الأبطال يبكيان ويتحسران[٣٧] . وحتى أجمنون نفسه لا يستعصى عليه البكاء فيذرف من الدموع ما يذكر هومر بمجرى ماء يتدفق فوق الصخور[٣٨] . والصداقة بين الأبطال قوية متينة ، وإن كنا نظن أنه قد يكون فى العلاقة أو قل العلاقة الغرامية التى بين أخيل وپتركلوس وخاصة پتركلوس الميت

شيء من الصلات الجنسية الشاذة . وهم شديدو السخاء على الأضياف لأن « الغرباء والمتسولين أبناء زيوس[٣٩] » والعذارى يغسلن قدمى الضيف أو جسمه ويدهنه بالأدهان ، وربما قدمن له ثياباً غير ثيابه ؛ وهو يجد الطعام والمأوى إذا كان فى حاجة إليهما ، وقد يتلقى الهدايا أيضاً[٤٠] . ومن أقوال هلن ذات الخد الأسيل ، وهى يضع بين يدى تلمكس ثوباً غالى الثمن : « هأنذا أقدم لك أيها الطفل العزيز هذه الهدية لتذكر بها يدى هلن فى يوم زواجك المرتقب من زمن بعيد ولتلبسها زوجتك[٤١] » ؛ تلك صورة تكشف لنا عن الحنو الإنسانى والشعور الرقيق اللذين يختفيان حتما فى الإياذة بين نقع الحرب وقعقعة السلاح .

والحرب نفسها لا تحول بين اليونان وبين حبهم القوى للألعاب . فالصغار والكبار على السواء يتبارون مباريات على جانب عظيم من الخطورة والمهارة ، تسودها العدالة والفكاهة . ويلعب خُطّاب پنلپى الداما ويتقاذفون الأقراص والحراب ، ويلعب ضيوف أديسيوس الفاكهون لعبة القرص وألعاباً غريبة هى مزيج من ألعاب الكرة والرقص[*] . ولما أحرقت جثة بتركلوس بعد وفاته أقيمت بهذه المناسبة حسب العادات الآخية ألعاب كانت هى المثل الذى احتذى فى الألعاب الأولمپية ، وكانت تشمل العدو ، وقذف القرص والحربة ، والرمى بالسهام ، والمصارعة ، وسباق المركبات ، والمبارزة بالسلاح ؛ وكانت كلها تسودها الروح الرياضية الطيبة ، إذا استثنينا أنها كانت محرمة إلا على الطبقات الحاكمة ، وأن الآلهة وحدها هى التى كان يسمح لها بالغش والخداع[٤٢] .

(*) ثم أمر ألسنوس Alcinous هلياس Hialias ولاودماس Laodmas أن يرقصا منفردين لأن أحداً من قبل لم يجرؤ على أن يراقصهما . وأخذ كل منهما فى يده الكرة الجميلة ، المصبوغة باللون الأرجوانى ... وأخذا يلعبان . فكان أولهما يثنى جسمه كله إلى الوراء ، ثم يقذف الكرة نحو الجماهير التى لا يراها ، فيقفز الآخر فى الهواء ويلتقطها بخفة ورشاقة قبل أن تلمس قدماه الأرض . وبعد أن يمارسا لعبة قذف الكرة إلى أعلى ، يشرعان فى قذفها فيما بينهما ، وهما فى أثناء ذلك كله يرقصان فوق الأرض المثمرة

أما الجانب الآخر من الصورة فكان أقل من هذا مدعاة للسرور. فنحن نرى أخيل يقدم « امرأة تحذق الأشغال اليدوية الجميلة » جائزة للفائز فى سباق العربات . ونرى الخيل ، والكلاب ، والثيران ، والضأن ، والآدميين يضحى بها على كومة إحراق بتركلوس حتى يكون له بعد موته ما يبتغيه من حسن الخدمة ومن الطعام[٤٤] ؛ ويحسن أخيل معاملة پريام ، ولكنه لا يفعل ذلك إلا بعد أن يجر جسم هكتور المشوه جراً مهيناً حول كومة الحريق . وكانت الحياة فى نظر الرجل الآخى قليلة القيمة ، لا يعد سلبها من الأمور الخطيرة ، وكانت لحظة من السرور كفيلة بردها إلى من قضى عليه بفقدها . وإذا ما غلبت مدينة على أمرها قتل رجالها أو بيعوا بيع الرقيق ، واتخذت النساء خليلات إن كن حساناً ، أو رقيقات إن لم تكن كذلك . وكانت القرصنة لا تزال من المهن المحترمة ، وكان الملوك أنفسهم ينظمون حملات مغيرة ، تنهب المدن والقرى وتتخذ أهلها عبيداً ، ويقول توكيديدس فى هذا : « والحق أن هذا العمل أصبح أهم مورد من موارد الرزق لليونان الأولين ، ولم تكن هذه المهنة حتى ذلك الوقت مما يخجل صاحبها العار[٤٥] » ، بل كانت تكسبه المجد . وكان فى مقدور الأمم العظيمة أن تهاجم الشعوب الضعيفة المحرومة من وسائل الدفاع وتخضعها لسلطانها دون أن يعد ذلك منها مخالفاً للعدل أو الكرامة ، شأنها فى هذا شأن الأمم القوية فى هذه الأيام . وحين يسأل أديسيوس هل هو تاجر يهتم بالمكاسب التى يسد بها مطامعه[٤٦] يرى فى هذا القول إهانة له ؛ ولكنه يتحدث فى زهو وخيلاء عما فعله وهو عائد من طروادة إذ قل ما كان لديه من المؤن فنهب مدينة إسمروس Ismarus وملأ منها سفينة بالطعام ؛ وكيف صعد فى نهر إيجيتس Aegyptus (يقصد نيل مصر) لينهب الحقول النضرة ويسوق أمامه النساء والأطفال الصغار ، ويقتل الرجال[٤٧] » . وملاك القول أنه

لم تكن ثمة مدينة من المدن آمنة من هجوم القراصنة المفاجئ عليها دون أن تعمل من جانبها ما يستفزهم أو يبرر هجومهم .

ويتصف الآخيون فضلاً عن حبهم للنهب والقتل دون أن يخشوا فى ذلك تأنيب الضمير ، يتصفون فضلا عن هذا بالكذب والخداع دون حياء ؛ فأديسيوس لا يكاد ينطق بقول دون أن يكذب فيه ، أو يعمل عملا دون يشوبه الغدو . من ذلك أنه لما قبض على دولون Dolon الجاسوس الطروادى وعده هو وديوميد Diomed أن يبقيا على حياته إذا أدلى إليهما بما يطلبانه من المعلومات ، فلما فعل قتلاه(٣٨) . ولسنا ننكر أن غير أديسيوس من الآخيين لا يضارعونه فى الغدر والخيانة ، ولكنهم لا يمتنعون عن ذلك لأنهم لا يريدون أن يغدروا أو يخونوا ، بل هم يحسدون أديسيوس ويعجبون به ، ويرونه أنموذجاً للخلق الطيب ؛ والشاعر الذى يصوره يعده بطلا من كل الوجوه ، وحتى الإلهة أثينا نفسها تثنى عليه لكذبه ، وتضيف هذه الصفة إلى محاسنه الخاصة التى تحببه إليها ، وتقول له وهى تبتسم وتربت عليه بيدها : « إن الذى يفوقك فى حيلك المختلفة الأنواع لا بد أن يكون ماكراً خبيثاً ، ولو كان الذى يلقاك إلهاً من الآلهة . إنك رجل ماكر فيما تسديه من نصح ، لا يقف خداعك وغدرك عند حد ؛ ويلوح أنك لا تمتنع فى بلدك نفسه عن الاحتيال وعن القصص الكاذبة الخادعة التى تحبها من أعماق قلبك »(٣٩) .

والحق أننا نحن أنفسنا نشعر بميل نحو هذا البطل الذى يشبه فى التاريخ القديم البطل منشهوزن الخرافى Munchausen ، فنحن نتبين فيه وفى الشعب المجد المحتال الذى ينتمى إليه من الصفات ما يستثير الحب ؛ فهو أب لطيف رقيق القلب ، وهو فى بلده حاكم عادل « لم يسئ لأحد فى أرضه لا بالقول ولا بالفعل » . ويقول فيه راعى خنازيره : « إننى لن أجد بعد اليوم سيداً يضارعه فى شفقته مهما بعدت البلاد التى أذهب إليها ، حتى لو عدت إلى

بيت أبى وأمى ! »[٥٠] . ونحن نغبط أديسيوس على « شكله الشبيه بأشكال الآلهة المخلدين » وعلى جسمه الرياضى ، الذى يمكنه وهو فى نحو الخمسين من عمره أن يقذف القرص أبعد مما يقذفه أى شـــاب من شبان الفيشيان Phaeacian ؛ ونعجب « بثبات جنانه » و « بحكمته الشبيهة بحكمة چوف »[٥١]. ولا ينقطع عطفنا عليه وهو يتمنى الموت بعد أن يئس من قدرته على أن يرى مرة أخرى « الدخان ينبعث من أرض وطنه » ، أو حين يقوى قلبه وسط ما يحيط به من أخطار وآلام بالألفاظ التى كان سبقراط يحب أن يرددها : « اصبرى الآن يا نفسى ، لقد قاسيت من قبل ماهو شر من هذا [٥٢] . وهو فى جسمه وعقله رجل من حديد ، ولكن كل قطعة فيه مهما صغرت قطعة من إنسان ، ولهذا فإنا نعفو عنه ونتجاوز عن سيئاته .

والحق أن المعايير الخلقية عند الآخيين تختلف عن معاييرنا اختلاف فضائل الحرب عن فضائل السلم . فالرجل الآخى يعيش فى عالم مضطرب ، كَدِر جوعان ، على كل إنسان فيه أن يعنى بحراسة نفسه ، وأن يكون على الدوام ممسكاً بقوسه ورمحه ، قادراً على أن ينظر فى هدوء إلى الدم المراق . وفى ذلك يقول أديسيوس : « إن المعدة الجائعة لا يستطيع أحد أن يخيفها ... ومن أجلها صنعت السفن المعوجة وأعدت لتحمل الويل إلى الأعداء فوق البحر الهائج المضطرب »[٥٣]. وإذا كان الآخى لا يجد إلا القليل من الأمن والسلامة فى بلاده . فإنه لا يرعى شيئاً منهما فى خارجها ؛ ويرى أن من حقه أن يفترس كل ضعيف . وأسمى الفضائل فى رأيه فضيلة الذكاء المقرون بالشجاعة والقسوة ، ولفظ الفضيلة فى لغته مشتق من لفظ الرجولة ومن صفة Ares أو المريخ(*) . وليس الرجل الصالح عنده هو الرجل اللطيف المتسامح ،

(*) Virtus = الرجولة ، Arete صفة أريس أو المريخ .

الأمين الرزين ، المجد الشريف ؛ بل هو الرجل الذى يحارب ببسالة وكفاية ، وليس الرجل الطالح هو الذى يدمن الشراب ، ويكذب ، ويقتل ويغدر ، بل هو الجبان الغبى أو الضعيف . لقد كان ثمة نيتشيون قبل نتشه ، وقبل ثرازمكس Thrasymachus بزمن طويل ، فى فجاجة العالم الأوربى وصلابته .

٣ — الرجال والنساء

كان المجتمع الآخى مجتمعاً أبوياً استبدادياً ، يمتزج به جمال المرأة وغضبها بحنان الأبوة وحبها القوين(*) . وكان الأب من الوجهة النظرية صاحب السلطان الأعلى ، وكان له أن يتخذ من السرارى ما يشاء(**) ، وأن يقدمهن لضيوفه ، وأن يضع أطفاله على قمم الجبال ليموتوا أو يذبحهم قرباناً للآلهة الغضاب . وهذه السلطة الأبوية المطلقة لا تستلزم حتماً أن يكون المجتمع الذى تسوده مجتمعاً وحشياً ، بل كل ما تعنيه أن هذا المجتمع لم يبلغ نظام الدولة فيه مبلغاً يكفى لحفظ النظام الاجتماعى ، وأن الأسرة فيه تحتاج فى خلق هذا النظام الاجتماعى إلى القوى التى آلت فيما بعد إلى الدولة حين أممت حق القتل ؛ وكلما تقدم التنظيم الاجتماعى وارتقى نقص سلطان الأب ، وتفككت وحدة الأسرة ، ونمت الحرية والفردية . ولقد كان الرجل الآخى فى الحياة العملية رجلا معقولا فى أغلب الأحوال ، يصغى فى صبر وأناة إلى فصاحة أهل منزله ويخلص إلى أبنائه .

وكان مركز المرأة فى نطاق هذا الإطار الأبوى أرقى فى بلاد اليونان

(*) لدينا آثار تدل على وجود مجتمع قبل ذلك العهد كانت السيادة فيه للأم . من ذلك ما تقوله الرواية الأثينية من أن « الأطفال » قبل سكروبس Cecrops لم يكونوا يعرفون آباءهم ؛ ولنا أن نستنتج من هذا أن الأطفال كانو ينتسبون إلى أمهم . بل إننا نرى فى الأيام الهومرية نفسها أن الآلهة التى كانت تعبدها المدن اليونانية بصفة خاصة كانت نساء : هيرا فى أرجوس ، وأثينا فى مدينة أثينة ، ومتروبرسفون فى إليوسيس Ilausis . ولسنا نرى هذه الإلهات تخضع لإله ذكر (٥٤)

(**) لقد كان لتسيوس زوجات بلغن من الكثرة درجة لم يحاول معها مؤرخ أن يترك لنا إحصاء لهن موثوقاً به(٥٥)

الهومرية منه فى أيام بركليز . فهى تضطلع بدور رئيسى فى القصص والملاحم من خطبة بلبس لهيوداميا Hippodameia إلى رقة إفجينيا وحقد إلكترا ؛ فلا الحجاب ولا البيت يمانع لها من الخروج ، بل نراها تسير حرة بين الرجال والنساء على السواء ، وتشترك أحياناً فى مناقشات الرجال الجدية كاشتراك هلن مع منلوس وتلمكس . ولم يكن الزعماء الآخيون إذا أرادوا أن يستثيروا غضب الشعب على طروادة يلجئون إلى المبادئ السياسية أو العنصرية أو الدينية ، بل كانوا يستثيرونه بجمال النساء ؛ ومن أجل ذلك كان وجه هلن الجميل هو الحجة التى تذرعوا بها لإثارة حرب تهدف إلى امتلاك الأرض وإلى التجارة ؛ واولا المرأة لكان بطل هومر جلفاً فظاً ليس له هدف يعيش من أجله ، فهى تعلمه شيئاً من الأدب والمثالية ودماثة الأخلاق .

وكان الشراء طريقة الزواج ، وكان الثمن عادة أثواراً أو ما يساويها يؤديه الخطيب إلى والد الفتاة . ويحدثنا الشاعر عن « العذراء حالبة الماشية[٥٦] » . ولم يكن الخطيب وحده هو الذى يؤدى ثمن العرس ، بل كان والدها يؤدى لها أحياناً باثنة قيمة . وكانت حفلة الزفاف عائلية واجتماعية معاً ، وكان من مظاهرها كثرة الطعام ، والرقص ، والمرح الذى تنطلق فيه الألسنة . وكانوا يسيرون بالعروسين فى وهج المشاعل من حجراتهما ويخترقون بها المدينة وسط أغانى العرس العالية . وكان الشبان يرقصون وهم يدورون ، وتعلو بينهم نغمات الناى والقيثارة[٥٧] — ألا ما أشبه الليلة بالبارحة . ومتى تزوجت المرأة أصبحت من فورها ربة بيتها ونالت من التكريم بقدر ما تنجب من الأبناء وكان الحب بمعناه الحقيقى أى بوصفه حناناً وشوقاً — يأتى إلى اليونان كما يأتى إلى الفرنسيين بعد الزواج لا قبله ، فلم يكن هو الشرارة التى تنطلق باتصال جسمين أو تقاربهما . بل كان ثمرة الاشتراك الطويل فى العناية بالبيت وشئونه . وفى الزوجة الهومرية من الوفاء بقدر ما فى زوجها

من عدمه ، وليس فى أشعار هومر إلا ثلاث زانيات — هن كليتمنسترا ، وهلن ، وأفروديتى ؛ ولكن الصورة التى يرسمها لهن لا تنطبق على المرأة العادية ، وإن انطبقت على الإلهات فى تلك الأيام :

وكانت الأسرة الهومرية التى أثرت فيها هذه العوامل (إذا صرفنا النظر عن مغالاة الأقاصيص التى لا وجود لها فى أشعار هومر) نظاماً سليما يستريح له الإنسان ويسر منه ، أكثر نسائها مهذبات رقيقات وأكثر أطفالها مخلصون أوفياء . ولم يكن عمل الأمهات مقصوراً على إنجاب الأبناء ، بل كن يقمن فيها بكثير من الأعمال ، فكن يطحن الحب ، ويمشطن الصوف ، ويغزلن ، وينسجن ، ويطرزن . ولم يكن يخطن كثيراً لأن معظم الملابس لم تكن بحاجة إلى الخياطة ، كما كان الطبخ فى العادة من أعمال الرجال . وكن فضلا عن هذه الأعمال يلدن الأطفال ويربينهم ، ويعالجن ما يصيبهم من أذى ، ويسوين ما يقوم بينهم من خصام ، ويعلمنهم عادات القبيلة وأخلاقها وتقاليدها الموروثة . ولم تكن لديهم تربية منظمة ، ولم يكونوا يتعلمون الكتابة أو الهجاء أو النحو ، ولم تكن عندهم كتب ؛ فكانت الأسرة والحالة هذه أحسن نظام يرتضيه الصبيان . وكانت البنات يتعلمن الفنون المنزلية على حين يتعلم الأولاد الصيد والحرب ؛ فكان الولد يدرب على صيد السمك وعلى السباحة ، وحرث الأرض ، ونصب الشراك وترويض الحيوانات ، وتصويب السهام والحراب ، وأن يعنى بنفسه فى كل ما يعترضه من الأحداث فى حياته التى لم يكن للقوانين فيها السلطان الكامل على الأهلين . وإذا شب أكبر أبناء الأسرة من الذكور وبلغ سن الرجولة أصبح فى غيبة أبيه رب الأسرة المسئول عنها ؛ فإذا تزوج جاء بزوجته إلى بيت أبيه . وهكذا تتجدد الأجيال جيلا بعد جيل ، يتغير فى خلالها أفراد الأسرة على مر الأيام وتبقى الأسرة محتفظة بهما عدة قرون ، تضع فى بوتقة البيت التى ينصهر فيها الأفراد قواعد النظام والأخلاق التى لا بد منها لقيام الحكومات على اختلاف أنواعها .

٤ ـ الفنون

وترك الآخيون إلى التجار والكتبة من أهل الطبقة الدنيا فن الكتابة الذى تلقوه فى أغلب الظن من بلاد اليونان الميسينية ، ذلك أنهم كانوا يفضلون الدم عن المداد واللحم عن الطين ، ولسنا نجد فى أشعار هومر كلها إلا إشارة واحدة للكتابة(٥٨) . ونجدها فى سياق فذ واضح الدلالة ، وهو أن لوحة مطوية تعطى لرسول ويؤمر فيها من سوف يتلقاها بأن يقتل حاملها . وإذا ما وجد الآخيون وقتاً يقضونه فى ممارسة الأدب فإن ذلك لم يكن إلا حين يجدون بين الحروب والغارات فترة من الوقت يركنون فيها إلى السلم ، ووقتئذ يجمع الملك أو الأمير أتباعه حوله ، يولم لهم وليمة ويدعو شاعراً أو مغنياً جوالا ينشدهم على قيثارته شعراً ساذجاً يقص أعمال الأبطال من أسلافهم الأولين . وكان ذلك شعر الآخيين وتاريخهم . ولعل هومر قد أراد كما أراد فيدياس أن ينقش صورته على ملاحمه فأخذ يقص علينا كيف طلب ألسينوس ملك القباشانيين أن يحيى أديسيوس بشىء من هذه الأغانى : « ادع إلينا المنشد الإلهى دمدوكس Demodocus ، لأن الله قد اختصه دون غيره بالمهارة فى الغناء . . . . ثم اقترب الرسول يقود المنشد القدير الذى تحبه إلهة الشعر أكثر من سائر الناس ، فوهبته من نعمتها وسلطت عليه من نقمتها ، فحرمته قوة البصر ولكنها وهبته نعمة الصوت الجميل »(٥٩) .

والفن الوحيد الذى يعنى به هومر غير فنه هو طرق الحديد وتشكليه فهو لا يذكر شيئاً عن التصوير ولا النحت ولكنه يستجمع كل ما أوتى من إلهام ليصف المناظر المصورة بالجواهر أو المزركشة على ترس أخيل ، أو المنقوشة نقشاً بارزاً على دبوس أديسيوس الذى يحلى به صدره . وإذا تحدث عن العمارة كان حديثه قصيراً ولكنه يلقى على هذا الفن كثيراً من الضوء . فنى وسعنا أن نستدل من حديثه على أن المساكن العادية فى

(شكل ٧) محارب
من هيكل أمانيا فى إيجنيا
(متحف ميونخ)

عصره كانت تشاد من اللبن على أساس من الحجارة ، وأرضها من الطين المطروق بالأقدام ، والذى كان ينظف بحكه بأداة خشنة ؛ وكان السقف يتخذ من الغاب تعلوه طبقة من الطين لا تميل إلا بالقدر الذى يمكن الأمطار من النزول . وكانت الأبواب مفردة أو مزدوجة ، وقد تكون لها مزالج أو مفاتيح[٦٠] . أما المساكن التى هى أعلى من هذه درجة فكانت جدرانها تطلى بالجبس الملون ، وتزين حافاتها أو تنقش ، وتعلق عليها الأسلحة والتروس والنسيج المنقوش . ولم يكن فى الدار مطبخ ، ولا مدخنة ، ولا نوافذ ، وكان فى سقف بهوها الأسط فتحة يخرج منها بعض الدخان المنبعث من الموقد ، وتخرج بقيته من باب الدار ، أو تستقر صناجا على الجدران . وكانت الحمامات من المرافق التى تحتويها بيوت الأغنياء ، أما غيرهم فكانوا يقنعون بوعاء من الخشب بدل الحمام . وكانوا يتخذون أثاثهم من الخشب الثقيل ، وكثيراً ما كان يصقل وتحفر فيه أشكال فنية جميلة . وقد صنع إكماليوس لبنلبى كرسياً ذا متكأ مطعما بالعاج والمعادن النفيسة ، وكذلك صنع أديسيوس له ولزوجته سريراً ضخما متيناً قدّر له أن يبقى مائة عام .

ومن خصائص هذا العصر أن أهله يُغفلون الهياكل ويوجهون كل عنايتهم إلى تشييد القصور ، بعكس عصر بركليز فإن أهله كانوا يهملون القصور ويصرفون جهودهم فى بناء الهياكل . فنحن نسمع عن « بيت باريس الفخم » الذى شاده ذلك الأمير بمعونة أمهر المهندسين فى طروادة[٦١] ، وبقصر الملك ألسنوس الفاخر الذى كانت جدرانه من البرنز ؛ وطنفه من عجين الزجاج الأزرق ، وأبوابه من الفضة والذهب ، إلى غير ذلك من الأوصاف التى تصدق على الشعر أكثر مما تصدق على فن العمارة . ونسمع كذلك الشىء القليل عن بيت أجمنون الملكى فى ميسينى كما نسمع الشىء الكثير عن قصر أديسيوس فى إثكا . وقد كان لهذا القصر دهليز أمامى مرصوف بعضه بالحجارة ، ويحيط به سور مجصص ، ويزدان بالأشجار ومذاود الخال ، وكومة من الروث الساخن ينام عليها أرجوس كلب أديسيوس فى

ضوء الشمس(*) . ويؤدى إلى داخل القصر مدخل ذو عمد ينام فيه العبيد والزائرون فى كثير من الأحيان ، أما داخل القصر نفسه فكان يحتوى على حجرة للانتظار تؤدى إلى بهو أوسط يستند إلى عمد يصل إليه الضوء من قمته فى السقف ، وفى بعض الأحيان من فتحة أخرى بين طنف البناء وعوارضه التى فوق الأعمدة . وكانت مجامر نحاسية مستقرة على قواعد عالية تضىء البيت إضاءة مضطربة غير مستقرة . وكان فى وسط البهو مدفأة الدار تجتمع الأسرة حول نارها المقدسة أثناء الليل للدفء والطرب ، وللتحدث عن أخبار الجيران ، وعاد الأطفال ، وتقلبات الأيام .

٥ — الدولة

ترى كيف كان هؤلاء الآخيون الأشداء السريعو الانفعال يُحكمون ؟ لقد كانوا فى السلم تحكمهم الأسرة وفى الأزمات تحكمهم العشيرة . والعشيرة جماعة من الناس ينتسبون إلى أصل واحد ويدينون بالطاعة إلى رئيس واحد ، وحصن هذا الرئيس هو منشأ المدينة ومركزها ، حتى إذا ما أصبح سلطانه سنة متبعة وشريعة معترفاً بها ، تجمعت حول الحصن عشيرة بعد عشيرة حتى يتكون من مجموعها مجتمع سياسى من ذوى القربى . وإذا تطلب الرئيس عملا إجماعياً من عشيرته أو مدينته دعا أحرارها الذكور إلى اجتماع عام وعرض عليهم اقتراحاً قد يقبلونه وقد يرفضونه ، ولكن أعظم الأعضاء شأناً هم الذين يستطيعون أن يقترحوا تغييره . ولقد كانت هذه الجمعية القروية العنصر الدمقراطى الوحيد فى هذا المجتمع الأرستقراطى الإقطاعى ، وكان أعظم أعضائها فائدة للدولة أفصحهم لساناً وأقدرهم على التأثير فى عامة الشعب . وإنا لنشهد منذ ذلك الوقت البعيد فى الشيخ نسطور الذى « يسيل صوته من لسانه أحلى من الشهد(٦٢) » ، وفى أديسيوس المحاتل الذى تقع

(*) يموت أرجوس من فرط الطرب حين يرى سيده بعد أن غاب عنه عشرين عاما .

كلماته « على الناس وقع هشاشش الثالج[٦٣] » ، نشهد فيهما بداية ذلك السيل من الفصاحة الذى قدر له أن يبلغ فى بلاد اليونان مستوى أرفع مما بلغه فى أية حضارة أخرى ، والذى قضى فى آخر الأمر على هذه الحضارة القضاء الأخير ،

وإذا تطلب الأمر أن تعمل العشائر مجتمعة فإن رؤساءها يطيعون أوامر أقواهم سلطاناً ، ويتخذونه ملكا عليهم ، ويدينون له بالطاعة هم وجيوشهم من الأحرار وأتباعهم العبيد . وكان أقرب الرؤساء إلى الملك مسكناً ، وأكبرهم مقاماً عنده ؛ يسمون « صحابة الملك » ، وهذا هو الاسم الذى أطلق عليهم أيضاً فى مقدونية أيام فليب وفى معسكر الإسكندر . وكان هؤلاء الأعيان يستمتعون فى البول boule أو المجلس بحرية القول ويخاطبونه حين يوجهون له القول على أنه « الأول بين الأنداد » . ومن هذه الهيئات المختلفة — الجمعية العامة ، ومجلس الأعيان ، والملك — نشأت دساتير العالم الغربى الحديث كله على كثرتها واختلاف أنواعها وأسمائها .

وكان للملك سلطان عظيم ولكنه ضيق الحدود . فهو ضيق فى الرقعة التى يظلها لأن مملكته صغيرة ، وهو ضيق فى زمانه لأن الملك معرض لأن يخلعه المجلس أو أن يخلع استناداً إلى حق سرعان ما اعترف به الآخيون وهو حق من عساه أن يكون أقوى من الملك سلطاناً . وفيما عدا هذا فقد كان حكم الملك وراثياً وكانت حدود سلطانه غير واضحة المعالم . وهو قبل كل شىء زعيم عسكرى شديد العناية بجيشه لأنه إذا عدمه تبينت للناس أخطاؤه ؛ وهو يحرص على أن يكون هذا الجيش حسن العدة ، والطعام ، والتدريب ، لديه ذخيرة من السهام المسمومة[٦٤] ، والحراب ، والخوذ ، والجراميق ، والرماح ، والتروس ، والدروع ، والعربات الحربية . وهو الحكومة بأجمعها طالما كان الجيش يحميه ، يجمع فى يديه التشريع والتنفيذ والقضاء ، وهو كاهن الدين الأكبر الذى يقرب القرابين باسم الشعب ، أوامره هى القانون ، وأحكامه نهائية لا معقب لها ، ولم يكن لفظ القانون قد وجد بعد[٦٥]. ومن

تحته المجلس الذى يجتمع أحياناً ليفصل فى المنازعات الخطيرة ؛ وكأنما كان هذا المجلس يضع التقاليد التى تسير عليها جميع المحاكم فيما بعد ، فكان يبحث عن السوابق ويحكم على غرارها . وكان للسوابق الغلبة على القانون لأن السابقة مستمدة من العادة ، والعادة هى الأخت الكبرى للقانون تنازعه سلطانه : على أن المحاكمات على أنواعها نادرة فى المجتمع الهومرى ، وقلما نسمع فيه عن هيئات عامة للقضاء ، بل كان على كل أسرة أن تدفع الأذى عن نفسها وتثأر لنفسها ، وكانت أعمال العنف كثيرة تسود المجتمع .

ولم يكن من عادة الملك أن يجبى الضرائب ليقيم بها دعائم ملكه ، بل كان يتلقى من حين إلى حين « هدايا » من رعاياه ؛ ولو أنه كان يعتمد على هذه الهدايا وحدها لكان ملكا فقيراً بحق ، أما مورده الأكبر فكان فى أغلب الظن مستمداً من الرسوم التى يفرضها على ما ينتزعه جنوده وسفنه من الأسلاب فى البر والبحر . ولعل هذا هو السبب من أجله وجد الآخيون فى عصر متأخر كالقرن الثالث عشر قبل الميلاد فى مصر وفى كريت . فكانوا فى مصر قراصنة غير ناجحين وفى كريت فاتحين عابرين . ثم نسمع عنهم فجأة وهم يستثيرون غضب الشعب بقصة عن السبى المذل ؛ ويجمعون بذلك قوى القائل جميعها ، ويجندون مائة ألف محارب ، ويبحرون بأسطول ضخم منقطع النظير مكون من نحو ألف سفينة ليجربوا حظهم ضد حراب آسية على سهول طروادة وتلها .

الفصل الرابع

حصار طروادة

ترى هل حوصرت طروادة بحق ؟ لسنا نعلم أكثر من أن كل مؤرخ يونانى وكل شاعر يونانى ، وأن كل سجل فى معبد يونانى إلا القليل الذى لا يستحق الذكر ، وكل قصة يونانية — من أن هذه كلها تسلم بلا جدال بأن طروادة حوصرت ؛ وأن علم الآثار قد كشف لنا عن المدينة المخربة مضاعفة عدة مرار ؛ وأن الفصة وأبطالها لا تزال فى هذه الأيام كما كانت فى آخر القرن الماضى تعد فى جوهرها قصة صحيحة[٦٦] : وقد جاء فى نقش مصرى خلفه رمسيس الثالث أن « الجزائر كانت قلقة مضطربة » حوالى ١١٩٦ ق . م[٦٧] ، وفى بلنى إشارة إلى رمسيس « الذى سقطت طروادة فى أيامه[٦٨] » . ويرجع إرتشتنيز Eratosthenes العالم الإسكندرى العظيم تاريخ هذا الحصار إلى عام ١١٩٤ ق . م مستنداً فى ذلك إلى الأنساب المتواترة التى نسقها المؤرخ — الجغرافى هِكتيُوس Hecataeus فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد .

ويتفق الفرس الأقدمون والفينيقيون مع اليونان فى قولهم إن تلك الحرب العظمى قد استعرت نارها لأن أربعة من النساء الحسان قد اختطفن عن بلادهن . فالمصريون على قولهم اختطفوا أيو Io من أرجوس ، واليونان اختطفوا أوربا Europa من فينيقية وميديا من كلكيز Colchis ؛ أليس من الإنصاف والحالة هذه أن يختطف باريس(*) هلن[٦٩] ؟ ويأبى استسيكورس

(*) لا حاجة بنا إلى القول بأن هلن كانت ابنة زيوس ، فقد اتخذ صورة بجعة وأغوى ليدا زوجة تنداريوس Tyndareus ملك اسپارطة .

فى سنيه الأخيرة بعد أن تاب وأناب ، كما يأبى هيرودوت ويوريبدز من بعده ، أن يعترفا بأن هلن قد غادرت بلادها إلى طروادة ؛ وكل ما فى الأمر أنها ذهبت إلى مصر مكرهة وأقامت فيها اثنتى عشرة سنة حتى جاءها منلوس . ويتساءل هيرودوت قائلا : هل من الناس من يصدق أن الطرواديين يحاربون عشر سنين من أجل امرأة واحدة ؟ ويعزو يوريبديز إرسال الحملة إلى ازدياد السكان فى بلاد اليونان أكثر مما تتحمله مواردها ، واضطرار أهلها بسبب هذه الزيادة إلى الهجرة والتوسع(٧٠) . ألا ما أقدم الأسباب الحديثة التى تبرر بها الرغبة فى القوة والسلطان .

على أنه لا يبعد أن تكون قصة شبيهة بهذه القصة قد استعين بها على جعل هذه المغامرة مستساغة لدى اليونان العادى ، وذلك بأن الناس فى حاجة إلى الألفاظ الطنانة إذا أريد منهم أن يضحوا بحياتهم . ومهما تكن أسباب الحرب الظاهرة ، فإن الذى لا شك فيه أن حقيقة أمرها وجوهرها لم تكن إلا نزاعاً بين طائفتين تتنازعان السيطرة على مضيق الهسپنت والأراضى الغنية المحيطة بالبحر الأسود ، وكانت بلاد اليونان بأجمعها وغرب آسية على بكرة أبيها ترى أنها نزاع حاسم ؛ واحتشدت أمم اليونان الصغيرة لمساعدة أجمنون ، كما أرسلت شعوب آسية الصغرى العون بعد العون لطروادة . وكانت الحرب فى حقيقة أمرها بداية الكفاح الذى تجدد فى مراثون وسلاميس ، وعند إسوس وأربيلا ، وعند تور وغرناطة ، وعند ليپنتو وڤينا ...

وليس فى وسعنا أن نذكر من أحداث الحرب وما بعدها غير ما يقصه علينا الشعراء اليونان ومؤلفو المسرحيات منهم ، ونحن نقبل ما يقولون على أنه أدب أكثر مما هو تاريخ ، وهذا فى حد ذاته مبرر قوى لاعتباره جزءاً من قصة الحضارة . فنحن نعلم أن الحرب بشعة وأن الإلياذة جميلة ، وأن الفن (إذا عكسنا قول أرسطاطاليس) قد يجمل الرعب — ويظهر تبعاً لذلك —

بما يخلعه عليه من معنى جميل وشكل ظريف . ولسنا نقصد بقولنا هذا أن الإلياذة قد وصلت إلى حد الكمال فى شكلها ، إذ الحقيقة أن تركيبها مهلهل غير رصين ، وأن القصص فيها متناقض تارة وغامض تارة أخرى ، وأن خاتمتها ليست خاتمة بالمعنى الصحيح . غير أن كمال كل جزء على حدته يعوض ما فى مجموعها الكلى من اضطراب ، والقصة رغم عيوبها الصغرى لا تقل فى مستواها عن مسرحيات التاريخ العظمى ، ولعلها لا تقل عن مستوى التاريخ نفسه .

(١)(*) نرى اليونان فى مستهل القصيدة وقد قضوا فى حصار طروادة تسع سنين دون أن يظفروا بها ؛ وقد غلبهم اليأس والحنين إلى الوطن ، وفتك بهم المرض . وقد وقفوا طويلا عند أوليس Oulis لأن المرض وسكون الريح فى البحر قد حالا بينهم وبين مواصلة السير ، وأثار أجمنون غضب كلتمنسترا وهيأ السبيل لسوء مصيره بأن ضحى بابنتهما إفجينيا لكى تهب الريح . وكان اليونان قد وقفوا فى أماكن متفرقة فى طريقهم ليأخذوا حاجتهم من الطعام والسرارى ، فأخذ أجمنون الحسناء كريسيس Chryses وأخذ أخيل بريسيس البارعة الجمال ؛ ثم يقول عراف إن أبلو يمنع النصر عن اليونان لأن أجمنون قد اعتـــدى على عفاف ابنه كاهنه كريسيز Chryseis . فيرد أجمنون كريسيس لأبيها ولكنه يواسى نفسه ويخلق فى القصة موقفاً مثيراً بأن يرغم بريسيس على أن تفارق أخيل وتحل محل كريسيس فى الخيمة الملكية . ويدعو أخيل الجمعية العامة إلى الانعقاد ، ويشكو إليها أجمنون وهو غاضب ثائر ، وينطق بأول كلمة فى الإلياذة ويثير الموضوع الذى يتردد فيها مراراً وتكراراً ، ويقسم أنه لن يمد هو أو جنوده يداً لمساعدة اليونان . (٢) ثم ننتقل بعدئذ إلى استعراض سفن الجيوش المتجمعة وقبائلهم ، ثم (٣) نشاهد منلوس المتعجرف يبارز باريس

(*) تشير الأعداد المحصورة بين قوسين إلى كتب الإلياذة .

مبارزة يراد بها وضع حد للقتال ؛ ويتهادن الجيشان مهادنة المتحفزين ، ويشترك پريام مع أجممنون فى تقديم القربان إلى الآلهة . ويظفر منلوس بپاريس ولكن أفروديتى تنقذه وتختطفه فى سحابة ثم تلقيه على فراش زوجته بعد أن تعطره وتمسحه بالمساحيق الربانية . وتأمره هلن أن يعود إلى القتال ولكنه يعرض عليها بدلا من هذا أن « يصرفا الوقت فى الفراش » . وتتغلب على هلن شهوتها فتجيبه إلى طلبه (٤) ويعلن أجممنون انتصار منلوس ، ويلوح أن الحرب قد وضعت أوزارها ، ولكن الآلهة تعقد مجلساً على جبل أولمپس للتشاور فى الأمر كما يتشاور البشر ، وتقرر أنها فى حاجة إن أن يسفك فوق ما سفك من الدماء . ويقترع زيوس لمصلحة السلم ولكنه يسحب صوته وينقلب مرتاعاً حين توحه زوجته هيرا خطابها إليه ، وتقترح أن تسمح لزيوس بأن يدك ميسينى وأرجوس واسپارطة دكا إذا وافق على تدمير طروادة : ويبدأ القتال من جديد ويهلك عدد كثير من الرجال تمزق أجسامهم السهام أو الحراب أو السيوف « ويخيم الظلام على أعينهم » .

(٥) وتشترك الآلهة فى هذه اللعبة المرحة لعبة التقتيل والتقطيع ، فتنقذ حربة ديوميد فى جسم أريس إله الحرب الرهيب ، ويصيح صيحة كأنها صادرة من تسعة آلاف رجل » ، ويسرع إلى زيوس ليبثه شكواه .

(٦) وتعقب ذلك فترة يودع فيها هكتر البطل الطروادى زوجته أندرمكا وداعاً حاراً قبل عودته إلى القتال . وتخاطبه بصوت رقيق قائلة : « حبيبى ، إن بسالتك ستؤدى إلى هلاكك ؛ إنك لا ترحم طفلك ولا ترحمنى ، أنا التى سأكون عما قريب أرملة ، لقد قتل أبى وأمى وإخوتى جميعاً ، ولكنك أنت يا هكتر أبى وأمى ، وأنت زوج شبابى ، فأشفق علىّ إذن وأقم هنا فى البرج » . فيرد عليها بقوله : « إنى أعلم حق العلم أن مآل طروادة هو السقوط ، وأرى بعين الخيال أحزان إخوانى وأحزان الملك ؛ غير أنى لا أحزن من أجلهم ؛ أما الذى يكاد يزلزل كيانى فهو أن أراك أسيرة رقيقة فى أرجوس ؛ ولكنى مع هذا لن أحجم

عن القتال[٧١] » ويصرخ ابنه الطفل أستيانا كس Astyanax ، الذى قدر له أن يلقيه اليونان للمتصرون، من فوق أسوار المدينة بعد قليل فيسقط على الأرض جثة هامدة، يصرخ مرتاعاً حين يبصر الريش يتماوج فى خوذة أبيه ، فيرفع البطل خوذته حتى يستطيع أن يضحك ، ويبكى ويصلى للطفل الحائر المندهش . ثم يتخذ طريقه إلى المعركة . (٧) ويبارز أجاكس Aijox ملك سلاميس . ويستميت البطلان فى القتال ثم يفترقان فى المساء بعد أن يتبادلا الثناء والهدايا . يا لها من زهرة مجاملة تسبح فى بحر من الدماء . (٨) وبعد أن يقضى الطرواديون يوماً كاملا يتنقلون فيه من نصر إلى نصر بأمر هكتر المحاربون بالكف عن القتال ليستريحوا .

هكتر خطب فيهم هكتر ، وحياه الطرواديون بأعلى أصواتهم وصفقوا له بأكفهم . ثم رفعوا النير عن جيادهم حربية والعرق يتصبب من أجسامهم وعقل كل منهم جواديه بالنسيور بجوار عربته ، وجاء من المدينة بالثيران والضأن السمين ، وقدم هكترلهم النبيذ وهو يخاطبهم بأعذب الألفاظ وأرقها .. وجاءهم بالخبز من البيوت ، وجمع الرجال وقود النار ، وحمل الهواء لرائحة الذكية من السهل إلى السماء ، وسهر من كانوا على جانبى الميدان الليل الطويل يملأ الأمل صدورهم ، وأوقدوا نار المراقبة ، وعلا لهب النيران الكثيرة التى أوقدها الطرواديون مروضو الخيول بجوار إليوم بين السفن السود ونهر زنثوس Thanathus ، وتلألأت تلألؤ النجوم حول آية الليل ، فكان منظراً من أعجب المناظر ، وسكنت الريح ، ولاحت قمم الجبال والروابى ، وظهرت الخلوات التى بين الجبال . وبدت السماء الواسطة ذات الجلال ، وتلألأت نجومها التى يخطئها الحصر على قلب الراعى الذى أضناه النصب . وفى هذه الأثناء كانت خيل القتال المتعة تلوك القمح والشعير الأبيض بالقرب من مركباتها تنتظر مقدم الفجر فوق عرشه الجميل[٧٤] .

(٩) ويشير نسطور ملك پيلوس الإيلية على أجمنون أن يرد بريسيس

إلى أخيل ، ويجيبه أجمنون إلى طلبه ، ويعد أخيل بأن يعطيه نصف بلاد اليونان إذا انضم مرة أخرى إلى المحاصرين ، ولكن أخيل يظل غاضباً . (١٠) ويفاجئ أديسيوس وديوميد معسكر الطرواديين بهجمة فى أثناء الليل يقتلان فيها اثنى عشر من رؤساء العشائر . (١١) ويقود أجمنون جنده ويستبسل فى القتال ويُجرح ثم ينسحب من الميدان . (١٢) ويلتف الأعداء حول أديسيوس فيقاتلهم قتال الأسود ، ويشق له أجاكس ومنلوس الطريق وينجيانه ليقاسى فيما بعد حياة مريرة (١٢ — ١٣) ويتقدم الطرواديون إلى الأسوار التى أقامها اليونان حول معسكرهم . (١٤) فتنزعج هيرا وتصمم على إنقاذ اليونان ، فتدهن بالزيت وتتعطر وتلبس أفخر الثياب ، وتتمنطق بمنطقة أفروديتى المقوية ، وتغوى زيوس فيضاجعها ، ويعمد بوسيدن فى هذه الأثناء إلى مساعدة اليونان على رد الطرواديين (١٥) وتظل الحرب سجالا فيصل الطرواديون إلى سفن اليونان ، وهنا تصل حماسة الشاعر ذروتها وهو يقص علينا كيف كان اليونان يحاربون مستيئسين وهم يتراجعون تراجعاً سيؤدى بهم إلى الهلاك .

(١٦) ويقنع پتركلوس حبيب أخيل هذا الطبل فيسمح له بأن يقود جنوده لمحاربة طروادة . ويقتله هكتر بيده ه (١٧) ويحارب أجاكس حرباً شديدة فوق جثة الشاب القتيل . (١٨) ويسمع أخيل بموت پتركلوس فيصمم آخر الأمر على القتال ، وتقنع أمه الإلهة ثيتيس الجد د الإلهى هفستوس Hephaestus بأن يصنع له أسلحة جديدة ودرعاً سابغة ضخمة . (١٩) ويتصالح أخيل مع أجمنون ، (٢٠) ويقاتل إينياس ويوشك أن يقتله لولا أن پوسيدن ينقذه ليتخذ منه قرجيل موضوعاً لشعره. (٢١) ويقتل أخيل عدداً كبيراً من الطرواديين ويقذف بهم إلى الجحيم مودعين بخطب يتحدث فيها عن نسبهم . وتواصل الآلهة القتال : فتقذف أثينا أريس بحجر يطرحه أرضاً وتحاول أفروديتى وهى فى زى جندى أن تنقذه ، فتضربها أثينا ضربة على

صدرها الجميل تلقيها على الأرض . وتصفع هيرا أرتميس على أذنيها ، أما بوسيدن وأبلو فيكتفيان بحرب الألفاظ . (٢٢) ويولى الطروادیون الأدبار من أخيل عدا هكتر وحده ؛ ويشير پريام وهكيبا على هكتر أن يبقى وراء أسوار المدينة ولكنه يرفض مشورتهما ، حتى إذا تقدم أخيل نحوه ولى الأدبار فجأة ؛ ويطارده أخيل حول أسوار طروادة ويطوف بها ثلاث مرات ؛ ثم يقف هكتر ليلاقى عدوه فيخر صريعا .

(٢٣) وفى ختام هذه المسرحية تحرق جثة پتركلوس بالمراسم الفخمة ؛ ويضحى أخيل من أجله بعدد كبير من الماشية ، وباثنى عشر من أسرى الطروادیين وبشـــعره هو الطويل . ويقيم اليونان الألعاب تكريماً له و (٢٤) يجر أخيل جثة هكتر خلف مركبته ثلاث مرات حول كومة الحريق . ويقبل پريام بموكبه وحزنه يرجو أن يسمح له بجثة ولده ، ويرق قلب أخيل له ، ويرضى بعقد هدنة تدوم اثنى عشر يوماً ، ويسمح للملك الشيخ بأن يأخذ جثة ولده بعد تطهيرها ودهنها بالزيت ، ويعود بها إلى طروادة .

الفصل الخامس

العودة إلى الوطن

وهنا تختتم القصيدة العظيمة خاتمة فجائية ، كأن الشاعر قد قام بنصيبه من القصة العامة ورأى من واجبه أن يترك ما بقى منها ينشده شاعر غيره ، وتقص الأداب بعدئذ كيف رمى باريس أخيل وهو واقف إلى جانب المعركة بسهم اخترق مؤخرة قدمه ، وهو الجزء الوحيد من جسمه الذى تؤثر فيه السهام ، فأرداه قتيلا ، وكيف سقطت طروادة آخر الأمر نتيجة لخدعة الحصان الخشبي .

وكان النصر الذى أحرزه المنتصرون سبباً فى هزيمتهم ، فعادوا منهكين محزونين إلى أوطانهم بعد حنين إليهـــا طويل . وتحطم كثير من السفن التى أقلتهم ، وارتطم بعضها بشواطئ البلاد الأجنبية وأنشأ من فيها مستعمرات يونانية فى آسية وجزائر بحر إيجة وإيطاليا(٧٣) . ولما أقبلت هلن « الإلهة بين النساء » على منلوس بجلال جمالها الهادى عاد حبها إلى قلبه وكان قد أقسم أن يقتلها حين يظفر بها ، وسره أن يعود بها إلى اسبارطة لتكون ملكته فيها ، ولما عاد أجمنون إلى ميسينى « عانق أرض بلاده وقبلها وذرفت عينه الدمع السخين(٧٤) » ولكن كلتمنسترا تزوجت ابن عمه إجسثس وأجلسته على العرش ، فلما أن دخل أجمنون القصر قتلا .

وأدعى إلى الأسى من هذا عودة أديسيوس ، وأكبر ظننا أن شاعراً آخر غير هومر قد قص قصته فى ملحمة أقل قوة وبطولة من الإلياذة(*) ،

(*) وأكبر ظنى أن أساس القصة التى تروى أديسيه أقرب شبهاً بالحقائق التاريخية من الإلياذة . ذلك أن أسطورة الملاح أو المحارب الطويل الذى لا تتعرف زوجته حين عودته أقدم يقيناً من قصة طروادة ، ولا يكاد يخلو منها أدب من آداب الأمم كلها(٧٥) .

ولكنها أسلس منها وأرق وأجمل ، وتقول الأديسة إن أديسيوس تحطمت سفينته على ساحل جزيرة أچيچيا Ogygia ، وهى جزيرة مسحورة شبيهة بجزيرة تهيتى Tahiti ، تحكمها ملكة إلهة تدعى كلبسو Calypso ؛ شغفها حباً فاستبقته عندها ثمانى سنين يحن فيها أشد الحنين إلى زوجته پنلپى وابنه تلمكس اللذين ينتظرانه فى إثكا على أحر من الجمر .

وتقنع أثينة زيوس بأن يأمر كلپسو بإطلاق سراح أديسيوس ، وتطير الإلهة إلى تلمكس وتستمع إلى قصته الساذجة وتعطف عليه ، فتعرف كيف أقبل أمراء إثكا والجزائر الخاضعة لها على پنلپى يترددون لها ويسعون إلى زواجها ليظفروا بعد ذلك الزواج بعرش إثكا ، وكيف يعيشون فى قصف ومرح فى قصر أديسيوس ويستمتعون بخيراته (٢) ويأمر تلمكس الخطاب بأن يعودوا إلى ديارهم ولكنهم يسخرون من شبابه ، فيخرج سراً على ظهر سفينة يبحث عن أبيه ؛ وتحزن پنلپى لبعد زوجها وابنها ، وتستمهل خاطبيها بأن تعدهم أنها ستتزوج واحداً منهم بعد أن تتم نسيج غزلها ، ولكنها تنقض منه فى الليل ما تعمله بالنهار (٣) ويزور تلمكس نسطور فى پيلس و (٤) منلوس فى اسپارطة ولكن أحداً منهما لا يستطيع أن يدله على مكان أبيه . ويرسم الشاعر صورة جذابة لهلن وقد استقرت فى بيتها خاضعة ولكنها لا تزال تستمتع بجمالها الربانى ، وقد غفر لها زوجها خطاياها من زمن بعيد ، وتقول إنها حين سقطت طروادة كانت قد سئمت المقام فى المدينة(*) .

= تأديسيوس اليونان هو بمينه سنوحى Sinuhe وسندباد ، وربنسن كروزو ، وإنك أردن Enoch Arden . أما الأماكن الواردة فى القصيدة فهى من الأسرار المحيرة للعقول التى لا يجد أصحابها ما يقضون فيه أوقات فراغهم .

(*) وتقول الرواية اليونانية إن مواطنيها قد اتخذوها بعد موتها إلهة لهم وعبدوها ، وكان من العقائد الشائعة فى بلاد اليونان أن الآلهة تعاقب من يستطيلون فى عرضها . بل إنهم قد أشاروا إلى أن هومر نفسه إنما أصيب بالعمى لأنه تغنى بالفرية القائلة بأن هلن فرت إلى طروادة بعد أن يقول إنها اختطفت وحملت إلى مصر رغم إرادتها(٧٧)

(٥) وهنا يدخل أديسيوس القصة لأول مرة . فقد كان « يجلس على ساحل جزيرة كلبسو » وقد جف الدمع من عينيه وغاض ماء حياته الحلوة من شدة حزنه وحنينه إلى وطنه . نعم إنه كان يقضى ليله فى الكهوف الجوفاء مضطجعاً على الرغم منه بجوار كلبسو ، ينام وهو كاره بجوار الحورية المشتاقة ، ولكنه كان يقضى النهار جالساً على الصخور والرمال ، يبكى ويتوجع وينظر إلى البحر المضطرب[٧٨] » وتستبقيه كلبسو ليلة أخرى تأمره بعدها أن يصنع رمثاً ويبحر فيه منفرداً .

(٦) ويكافح أديسيوس البحر كفاحاً طويلا ثم ينزل فى أرض فيشيا الخرافية (ولعلها كرسيرا — كورفو Corcyra - Corfu) حيث تعثر عليه العذراء نوسكا Nausicaa وتأخذ إلى قصر أبيها الملك ألسنوس ، وتعشق الفتاة البطل الجريء المفتول العضلات ، وتفضى بسرها إلى أترابها فتقول لهن : « استمعن إلىّ أيتها العذارى ذوات الأذرع الجميلة البيضاء . . . لقد كان هذا الرجل يبدو لى منذ قليل غير وسيم ، أما الآن فهو فى نظرى كالآلهة التى تستقر فى السماء الواسعة . ألا ليت رجلا كهذا يصبح لى زوجاً ، يقيم هنا ، ألا ليته يرضى أن يقيم هنا معى[٧٩] » . (٧ — ٨) ويعجب ألسنوس بأديسيوس أشد الإعجاب فيعرض عليه ان يزوجه نوسكا ، ويعتذر أديسيوس ولكنه يسره أن يقص عليه قصة عودته من طروادة .

(١١) فيقول للملك إن سفنه قد دفعتها الرياح عن طريقها إلى أرض أكلة (اللوطس) ، وإن هؤلاء قدموا لرجاله فاكهة اللوطس الحلوة فنسى الكثيرون منهم أوطانهم وحنينهم إليها حتى لم يجد أديسيوس بد من أن يرغمهم على العودة إلى سفنهم . وساروا من هنا إلى أرض السيكلوبين الجبابرة العور ، الذين لا يقومون بعمل ولا يخضعون لقانون ، ويعيشون فى جزة تكثر فيها الحبوب والفاكهة البرية . ووقعوا فى كهف السيكلوب

بوليفيمس Polyphemus فأكل عدداً منهم ، وأنقذ أديسيوس من بقى بأن أنام الوحش الجبار بعد أن أسكره ، ثم حرق بالنار عينه الوحيدة : (١٠) ثم ركب الجوالون البحر مرة أخرى وأوغلوا فيه حتى وصلوا إلى أرض اللستريجونيين Laestrygonians ، وكان هؤلاء أيضاً من أكلة اللحوم البشرية فلم تنج منهم إلا سفينة أديسيوس . ووصل هو ومن كان معه فى السفينة إلى جزيرة إيئيا Aenea حيث أغوت سرس Circe الإلهة الجميلة الغدارة معظم رفاقه بغنائها الجميل فدخلوا كهفها ، ثم خدرتهم ومسختهم فصاروا خنازير . وأوشك أديسيرس أن يذبحها ، ولكنه غير رأيه ورضى بحبها ، ثم عاد هو ورفاقه إلى صورتهم البشرية وأقاموا مع سرس سنة كاملة . (١١) أبحروا بعدها مرة أخرى ووصلوا إلى أرض يغشاها الظلام السرمدى تبين لهم أنها مدخل الجحيم (هيدس Hades) ، وفيها تحدث أديسيوس إلى أطياف أجممنون وأخيل ووالدته . (١٢) ثم واصلوا سيرهم ومروا بجزيرة السيرينات Sirens ، وهناك أنجى أديسيوس رجاله من أغانيهن المغوية بأن وضع شمعاً فى آذانهم . ثم تحطمت سفينته فى مضيق سلا Scylls وكربديس Charybdis (مسينا ؟) ولم ينج ممن كانوا فيها إلا هو وحده ، وقد نجا ليعيش تسع سنين أخرى فى جزيرة كلبسو .

(١٣) ويتأثر ألسنوس بقصة أديسيوس ، تدفعه شفقته عليه فيأمر رجاله أن ينقلوه بحراً إلى إثكا ، على أن يعصبوا عينيه لئلا يعرف مكان أرضهم الهنيئة ويدل الناس عليها . وفى إثكا تقود الإلهة أثينة السائح الجوال إلى كوخ يوميوس Eumaeus راعى خنازيره . (١٤) ويستقبله الراعى ويكرمه إكراماً حاتمياً ، وإن كان لا يعرفه . (١٥) وتقود أثينة تلمكس إلى هذا الكوخ نفسه (١٦) ويكشف أديسيوس عن نفسه لولده . (١٧) ويبكيان كلاهما ، وينتحبان بحرقة وبأعلى صوتيهما ، ويفضى الوالد لولده بخدعة يقتل بها جميع الذين تقدموا لخطبة زوجته .

(١٧ — ١٨) ويدخل القصر فى زى متسول ، ويرى الخاطبين يأكلون ويتمتعون بماله ، وتغلى مراجل الغضب فى صدره حين يعلم أنهم يضاجعون خادماته بالليل وإن كانوا يغازلون پنلپى بالنهار . (١٩ — ٢٠) ويحتقره الخاطبون ويهينونه ولكنه يرد أذاهم بقوته وصبره . (٢١) وكان الخاطبون وقتئذ قد كشفوا حيلة النسيج التى خدعتهم بها پنلپى ، وأرغموها على أن تفرغ منه ، وتوافق على أن تتزوج من يستطيع منهم أن يشد وتر قوس أديسيوس المعلق على أحد جدران القصر ، ويرمى منه بسهم يمر من فتحات اثنتى عشرة بلطة مصفوفة فى صف واحد . ويحاولون جميعاً أن يفعلوا هذا ولكنهم لا يفلحون ، ويطلب أديسيوس أن تتاح له الفرصة ليجرب حظه ويفلح فيما أخفقوا فيه . (٢٢) ثم يلقى عن نفسه القناع ويكشف عن حقيقة أمره وهو غضبان أسف ، ويصوب سهامه إلى صدور الخاطبين ويقتلهم جميعاً بمعونة تلمكس ، ويوميس ، وأثينا . (٢٣) ويلقى صعوبة شديدة فى إقناع پنلى أنه هو أديسيوس ، ذلك أن من أصعب الأمور أن تتخلى امرأة عن عشرين خاطباً من أجل زوج واحد . (٢٤) ويواجه هجمات أبناء الخاطبين ، ويستل سخائم صدورهم ويستعيد ملكه .

وفى هذه الأثناء كانت أشد المآسى فى القصص اليونانى تجرى فى مجراها ذلك أن أرستيز Arestes بن أجممنون كان وقتئذ قد بلغ رشده ، وأثارت أخته إلكترا ثائرته فأخذا بثأر أبيهما وقتلا أمهما وعشيقها . وقضى رستيز بعدئذ سنين كثيرة يضرب فى الأرض وهو ذاهب العقل حتى جلس آخر الأمر على عرش أرجوس — ميسينى (حوالى عام ١١٦٧ ق . م) ، وضم بعدئذ اسپارطة إلى ملكه(*). ولكن بيت پلوپس Pelops أخذ بعد اعتلائه العرش فى الاضمحلال ،

(*) عثر السير آثر إيفنز فى قبر ميسينى فى بؤوتيا على نقوش محفورة تمثل كهلا يهاجم تمثالا لأبى الهول وشابا يهاجم رجلا أكبر منه سناً وامرأة . ويرى أن هذه النقوش تشير إلى =

ولعل هذا الاضمحلال قد بدأ من أيام أجمنون نفسه ، وكان هذا الزعيم قد اتخذ الحرب وسيلة لضم شتات ملك كان وقتئذ ينفرط عقده . غير أن انتصاره كان الضربة القاضية عليه لأن من كان معه من الزعماء لم يعد منهم إلا القليل ، وشقت كثير من الممالك عصا الطاعة وخرجت على كثيرين ممن لم يصحبوه من الزعماء . ولم يكد ينتهى العهد الذى بدأ بحصار طروادة حتى كانت قوة الآخيين قد أنهكت ونضب معين الحياة من جسم أبناء پلوپس ، وأخذ الشعب يترقب فى صبر وأناة ظهور أسرة جديدة .

= أديبوس وأرستيز . وإذا كان يعزو هذه النقوش إلى حوالى عام ١٤٥٠ ق.م. فإنه يرجع تاريخ أديبوس وأرستيز بناء على هذا إلى عصر يسبق بمائتى عام العصر الذ . حددناه فى المقتن إلى هاتين الشخصيتين تحديداً لا نجزم بصحته .

الفصل السادس

فتح الدوريين

اجتاحت بلاد اليونان حوالى عام ١١٠٤ موجة جديدة من الهجرة أو الغزو متدفقة من الشمال القلق المضطرب النازع إلى التوسع ؛ فقد انزلق أو سار إلى البلوبونيز ، أو تدفق عليها ، شعب ذو روح حربية ؛ طويل القامات مستدير الرؤوس ، معدوم الصلة بالأدب ، بعد أن اخترق إليريا وتساليا وعبر خليج كورنثة عند نوپكتوس Naupacuts ، ومضيق كورنثة عند كورنثه نفسها ، واستولى على البلاد وقضى على الحضارة الميسينية قضاء يكاد يكون تاماً . وكل ما نقوله عن أصلهم وعن الطريق الذى سلكوه لا يرقى إلى أكثر من الحدس والتخمين . أما أخلاقهم وأثرهم فى البلاد التى فتحوها فإن علمنا عنهما يرقى إلى مرتبة اليقين . لقد كانوا لا يزالون فى مرحلة الرعى والصيد ؛ وكانوا من حين إلى حين يستقرون لفلح الأرض ، ولكن جل اعتمادهم كان على ماشيتهم ، وكانت حاجة هذه الماشية إلى المرعى الجديد سبباً فى كثرة تنقلهم وعدم استقرارهم . وكان الشىء الوحيد الموفور عندهم وفرة لم يسمع بها عند غيرهم هو الحديد ؛ ومن أجل ذلك كانوا هم رسل الثقافة الهلستانية(*) إلى بلاد اليونان ؛ وكانت صلابة أسيافهم وشدة بأسهم سبباً فى تفوقهم على الآخيين والكريتيين ، وفى قسوة قلوبهم وبطشهم الشديد ، وكان الآخيون والكريتيون وقتئذ يستخدمون أسلحة من البرنز . والراجح أنهم تدفقوا من الغرب والشرق ، من إليس ومجارا ، على ممالك البلوبونيز المتفرقة الصغيرة وذبحوا بسيوفهم طبقاتها الحاكمة ، واتخـذوا من بقى

(*) مدينة فى النمسا أطلق اسمها على الفترة الأولى من الحديد فى أوربا لكثرة ما كشف فيها من الآثار المصنوعة منه .

من الميسينيين أرقاء . ودمرت النيران ميسيني وتيرينز وأضحت أرجوس عاصمة جزيرة پلوپس وظلت كذلك مائتين من السنين . واستولى الغزاة فى برزخ كورنثة على أكروكورنثوس Acrocorinthus وهى قمة عالية تشرف على ما حولها وتسيطر عليه ، وشادوا حولها مدينة كورنثة الدورية[٨٠] . وفر أمامهم من بقى حياً من الدوريين ، فلجأ بعضهم إلى جبال البلوبونيز الشمالية ، وبعضهم إلى أتكا ، وعبر بعضهم البحر إلى الجزائر وإلى سواحل آسية . واقتفى الفاتحون أثرهم إلى أتكا ولكنهم صدوا عنها ؛ وجاءوا فى أثرهم إلى كريت[٨١] ، ودمروا ما بقى من كنوسس تدميراً تاماً ؛ واستولوا على ميلوس وثيرا Thera وكوس Cos ، ونيدس Nidus وروودس . وكان الخراب أشمل وأتم فى جميع أنحاء البلوپونيز ودريت حيث ازدهرت الثقافة الميسينية أكثر من ازدهارها فى غيرها من الأصقاع .

وهذه الكارثة الختامية التى وقعت فى العصر السابق للحضارة الإيجية هى المعروفة لدى المؤرخين المحدثين باسم الفتح الدورى ، والتى تسميها الرواية اليونانية « عودة الهرقليين » . ذلك أن الظافرين لم يقنعوا بأن يسموا انتصارهم هذا غلبة أقوام همج على شعب متحضر ، بل قالوا إن ما حدث فى واقع الأمر هو أن أبناء هرقل ومن تناسلوا من أبنائه حيل بينهم وبين حقهم المشروع فى العودة إلى البلوپونيز ، فانتزعوا هذا الحق بقوة سواعدهم وبطولتهم . ولسنا نعرف ما فى هذا القول من الحقائق التاريخية وما فيه من الأساطير الدپلوماسية التى يقصد بها تصوير هذا الفتح الدموى فى صورة حق مقدس . وإنا ليصعب علينا أن نعتقد أن الدوريين قد برعوا فى الكذب هذه البراعة كلها فى شباب العالم . وقد تكون القصتان كلتاهما صحيحتين وهو ما لم يسلم به المحاجون : فقد يكون الدوريون غزاة فاتحين من الشمال يقودهم أبناء هرقل وحفدته .

ومهما يكن مظهر هذا الفتح فإن ما ترتب عليه من الأثر هو أنه عاق تقدم بلاد اليونان ونماءها زمناً طويلا ، وأصابها بمحنة شديدة . فقد ظلت أحوالها السياسية مضطربة قرنين كاملين ، وكان كل رجل فيها يحمل السلاح لأنه بات غير مطمئن على حياته ؛ وزادت أعمال العنف زيادة مطردة فعطلت أعمال الزراعة والتجارة البرية والبحرية ، واشتعلت نيران الحرب وعلا سعيرها ، وازداد الفقر شدة وانتشاراً ؛ وأصبحت الحياة قلقة مضطربة لأن الأسر أخذت تنتقل من إقليم إلى إقليم طلباً للأمن والسلم(٨٢) . ويسمى هزيود Hesiod هذا العصر عصر الحديد ، ويأسف على فساده وانحطاطه عن العصور الجميلة التى سبقته ، وكان كثير من اليونان يعتقدون أن « كشف الحديد قد أضر بالإنسان(٨٣) » ؛ واضمحلت الفنون وأهمل التصوير ، وقنع المثالون بنحت التماثيل الصغيرة الملونة ؛ وانحطت صناعة الفخار لأن الصناع غفلوا عما كان يمتاز به فن ميسينى وكريت من نزعة طبيعية حيوية ، فاتبعوا « طرازاً هندسياً » لا حياة فيه ، ظل يسيطر على فن الخزف اليونانى جملة قرون .

ولكن الخسارة لم تحل بكل شىء ، فقد امتزج العنصر الجديد بالقديم امتزاجاً سريعاً فى خارج لكونيا Laconia وامتزاجاً بطيئاً فى داخلها ، على الرغم من تصميم الغزاة الدوريين على أن يحتفظوا بدمائهم نقية طاهرة من دماء الأهلين المغلوبين ، وعلى الرغم من الكراهية العنصرية بين الدوريين والأيونيين ، وهى الكراهية التى اصطبغت بها بلاد اليونان على بكرة أبيها . ولعل امتزاج دم الآخيين والدوريين القوى النشيط بدم الشعوب التى هى أقدم من هذين الشعبين وأرق ، والتى كانت تقيم فى جنوبى اليونان ، لعل هذا كان ذا أثر حافز منشط . ومهما يكن لهذا الامتزاج من أثر فإن النتيجة النهائية التى أسفر عنها بعد قرنين من الزمان هى نشأة شعب جديد مختلف عن الشعوب التى كانت تعيش من قبل فى تلك البلاد ، امتزجت فيها دماء عناصر « البحر المتوسط » و « الألبى » و « الشمالى

(النوردى) ، والعناصر الأسيوية امتزاجاً أدى إلى كثير من القلق والاضطراب .

كذلك لم تمح الحضارة الميسينية من الوجود . فقد بقيت الحياة كامنة طوال قرون العنف والفوضى فى بعض عناصر التراث الإيجى — كطرائق الحكم والنظام الاجتماعى ، وعناصر الصناعات اليدوية والفنية ، وأساليب التجارة وطرقها ، وأشكال العبادة وأدواتها(٨٤) ، والمهارة فى صنع الخزف والنقش ، وفن طلاء المظلمات ، وأساليب الزينة وطرز العمارة . ويعتقد اليونان أن النظم الكريتية قد انتقلت إلى اسپارطة(٨٥) ، وقد ظلت الجمعية الآخية عنصراً أساسياً فى بلاد اليونان الدمقراطية . وأكبر الظن أن تصميم الهياكل الدورية قد أخذ عن الميسينيين(٨٦) ، بعد أن خلعت عليه الروح الدورية حرية وتناسقاً وقوة . وانتعشت التقاليد الفنية انتعاشاً بطيئاً فرفعت كورنثة وطيبة وسكيون Sicyon وأرجوس إلى نهضة فنية مبكرة شبيهة بالنهضة الأوربية التى أعقبت العصور الوسطى ، وجعلت الفن والغناء يبتسمان فى اسپارطة العنيدة نفسها ، حيناً من الدهر ، وظلت هذه التقاليد تبعث الحياة فى الشعر الغنائى طوال هذا العصر المظلم الذى لا تاريخ له ، وحملها معهم البلاسجيون والآخيون ، والأيونيون ، والميناويون المنفيون فى هجرتهم إلى جزائر بحر إيجة وإلى آسية هرباً من الغزاة الفاتحين ، وأعانت المدن التى أقامها المستعمرون على أن تفوق أمهاتها فى الآداب والفنون . ولما جاء المنفيون إلى الجزائر وإلى أيونيا وجدوا بقايا الحضارة الإيجية فاستولوا عليها واستعانوا بها . فقد احتفظ عصر البرنز بشىء من المهارة والنضارة القديمتين فى المدن القديمة بهذه الجزائر ، لأنها كانت أقل اضطراباً من مدن القارة الأوربية ، وهناك فى هذه الأرض الأسيوية بدأت بعدئذ يقظة اليونان الجديدة .

وبعض هذا الاتصال بين خمس ثقافات — الكريتية والميسينية والآخية ، والدوزية والشرقية — الشباب من جديد فى حضارة بدأ يدب فيها دبيب

الفناء ، حضارة فقدت رقتها فى أرض القارة بفعل الحرب والنهب ، وأصبحت حضارة منحلة مختثة فى كريت لما ركنت إليه عبقرية أهلها من ترف . وقد احتاج امتزاج السلالات والأساليب قروناً عدة حتى استقر بغض الاستقرار ، ولكنه أعان على خلق ما فى التفكير اليونانى والحضارة اليونانية من تنوع ، ومرونة ، ودقة منقطعة النظير . وليس من حقنا أن ننظر إلى الثقافة اليونانية على أنها وميض لاح فجأة ، وبطريقة غير عادية ، فى بحر مظلم من الهمجية ، بل إن علينا أن ننظر إليها على أنها عملية بطيئة كدرة أدت إلى خلق شعب غنى غنىً يكاد أن يكون مفرطاً فى تنوع دمائه وفى ذكرياته ، تحيط به وتتحداه ، وتعلمه ، جموع همجية ، وإمبراطوريات قوية وحضارات قديمة .